الفصل الخامس

أعلام الشعراء

١

على بن الجهم [١]

يرجع نسب على بن الجهم إلى بنى سامة بن لؤىّ القرشيين ، وقد نزل أحد أجداده مدينة مَرْو بخراسان واستوطن هذا البلد النائى مع من استوطنه من أبناء العرب الفاتحين لأواسط آسيا . وإلى هذا الموطن يشير على بن الجهم فى إحدى مدائحه للمتوكل ، إذ يفاخر بأنه من أهل خراسان الذين أدالوا للعباسيين من الأمويين قائلا [٢] :

مذهبى واضحٌ وأصلى خُراسا نُ وعِزِّى بعِزِّكم موصولُ

ويبدو أن الجهم رحل عن موطن أجداده بخراسان مبكراً إلى بغداد مع بعض إخوته وأسرته طلبًا للرزق وشَغْل بعض الوظائف فى الدولة . ويفتح له المأمون أبوابه ، ويولِّيه بريد اليمن وبعض الثغور ويتولَّى فى عهد الواثق شرطة بغداد [٣] وفى ديوان أبى تمام أشعار فى أخيه عثمان وابنه إدريس ، مما يدل — من بعض الوجوه — على أنه كان لهذه الأسرة بعض الجاه والوجاهة . ولا تُعْرَفُ بالضبط السنة التى أنجب فيها الجهم ابنه عليا ، ويغلب أن يكون مولده سنة ١٩٠ للهجرة وأن تكون بغداد مسقط رأسه ؛ ونراه فى نعومة أظفاره يختلف من داره فى شارع دُجَيْل

---

(١) انظر فى على بن الجهم وترجمته وأشعاره طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣١٩ والأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ١٠ /٢٠٣ ومعجم الشعراء للمرزبانى (طبعة الحلبى) ص ١٤٠ ووفيات الأعيان لابن خلكان فى على وتاريخ بغداد ١١ /٣٦٧ وتاريخ ابن الأثير والنجوم الزاهرة فى سنة ٢٤٩ والموشح للمرزبانى ص ٣٤٤ وطبقات الحنابلة لابن أبى يعلى ص ١٦٤ وقد طبع ديوانه فى المجمع العلمى العربى بدمشق خليل مردم ووضع له مقدمة قيمة .

(٢) الديوان ص ٢٦ .

(٣) تاريخ بغداد ٧ /٢٤٠ .

إلى كُتّاب بالحى كان يتعلم فيه الأطفال ذكوراً وإناثًا مجتمعين، ولفتته ذات يوم بُنَيَّة صغيرة بمحاسنها الدقاق فكتب إليها فى بعض الألواح [١]:

ماذا تقولين فيمن شفَّه سَهَرٌ ... من جَهْد حبك حتى صار حيرانا

وسرعان ما أجابته البُنَيَّة فى نفس اللوح على البديهة:

إذا رأينا محبًّا قد أضرَّ به ... جَهْدُ الصبابة أو لياه إحسانا

وفى بعض الروايات أن هذا البيت أول شعر نظمه، وكأن هذه البُنَيَّة هى التى ألهمته الشعر وأنطقته. وكان لا يزال يملأ الدار على أبيه شغبًا وعبثًا ولعبًا، فسأل معلمه فى الكُتّاب أن يحبسه تأديبًا له، وأجابه المعلم إلى حبسه، فاغتاظ على من أبيه غيظًا شديداً، ولم يلبث أن كتب إلى أمه فى شِقّ لَوْح مستغيثًا [٢]:

يا أُمَّتا أفديكِ من أُمٍّ ... أشكو إليكِ فظاظةَ الجَهْمِ

قد سُرِّح الصبيان كلهمُ ... وبقيتُ محصوراً بلا جُرْم

وتوسطت له أمه عند أبيه وأطلق سراحه، وكأنما كان هذا الهجاء لأبيه إرهاصًا بما سيصير إليه من حدة لسانه التى سيصلى فيما بعد نارها. والحادثتان كلتاهما تدل على أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة؛ فإنه لم يكد ينهى دروسه فى الكتّاب حتى كان قد أصبح شاعراً ينظم الشعر فى يسر. وكانوا يتعلمون فى الكتّاب شيئًا من علم الحساب ومن النحو والعروض وبعض سور القرآن وبعض الأشعار والأحاديث النبوية. ولا ريب فى أنه كان يغدو ويروح بعد ذلك مع الشباب إلى حلقات العلماء المتكلمين فى المساجد ينهل منها، وربما اطلع على شىء من علوم الأوائل صنيعَ لداته فى عصره. وكانت فى المسجد الجامع حلقة كثيراً ما اختلف إليها وكثيراً ما اجتذبته، ونقصد حلقة الشعراء إذ «كانوا يجتمعون كل جمعة فى القبة المعروفة بهم فى جامع بغداد، ينشدون الشعر ويعرض كل منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم فى الجمعة السابقة». وفى هذه الحلقة تعرف

---

(١) الديوان ص ١٨٤.

(٢) الديوان ص ١٨٠ والجرم: الذنب.

على كثير من شعراء عصره وفى مقدمتهم أبو تمام الذى أصفاه ودّه وصوّر ذلك تصويراً رائعًا فى شعره بمثل قوله[١] :

إنْ يختلفْ ماءُ الوِصال فماؤُنا عَذْبٌ تحدَّر من غمامٍ واحدِ
أَو يفترقْ نَسَبٌ يؤلِّفْ بَيْنَنَا أَدبٌ أَقمناه مُقام الوالدِ

ولم يكد على يتجاوز العشرين ربيعًا حتى أخذ نجمه بين الشعراء المعاصرين له فى الصعود ، وإذا هو يصبح من مُدَّاح المعتصم ومن يحظون بالوفود عليه ، ويُعْجَبُ به ، فيجعله على مظالم حلوان بالعراق[٢]. ويفد على الواثق يمدحه ، غير أن ابن الزيات وزيره كان يزورُّ عنه ، ويبدو أنه عزله عن عمله ، إذ نراه يصبُّ عليه جام غضبه[٣] . وفى هذه الأثناء نراه يعقد صلة وثيقة بينه وبين عبد الله بن طاهر أمير خراسان ، مؤتسيًا فى ذلك بصديقه أبى تمام ، ويتوفى سنة مائتين وثلاثين للهجرة ، فيعزّى فيه ابنه طاهراً خليفته على ولاية خراسان ويبكيه بكاء حارًّا .

وتُقبل الدنيا على ابن الجهم مع خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة إذ يصبح من أقرب الشعراء إلى نفسه ، ويتخذه جليسًا ونديمًا ، ويسرّ إليه بما يدور بينه وبين جواريه ومحظيَّاته من مثل محبوبة وقبيحة أم المعتز ، ويغدق عليه أمواله وجوائزه حتى ليروى الرواة أنه دخل عليه يومًا وبيده دُرَّتان نفيستان يقلّبهما تعجبًا واستحسانًا ، ويبالغ الرواة فيقولون إن الواحدة منهما كانت تزيد قيمتها على مائة ألف ، وأنشده ابن الجهم قصيدة جعلته يقدم له إحدى الدُّرَّتَيْن ، وكانت فى يمينه ، والأخرى لا تزال فى يساره ، فأسرع ابن الجهم يقول على البديهة :

بِسُرَّ مَنْ رَا إمامُ عَدْلٍ تغْرف من بحره البحارُ
المُلْكُ فيه وفى بَنيـه ما اختلف الليل والنهارُ
يُرْجَى ويُخْشَى لكل أمرٍ كأنه جَنَّةٌ ونــارُ

(١) ديوان أبى تمام ١ / ٤٠٧.
(٢) أغانى ١٠ / ٢١٠ .
(٣) الديوان ص ١١٨ .

يداه فى الجود ضَرَّتانِ عليه كلتاهما تَغارُ
لم تأتِ منه اليمينُ شيئاً إلا أَتت مثلَه اليسارُ

واهتز المتوكل طرباً وأعطاه الثانية[١]. وقد يكون فى منادمته للمتوكل وملازمته له ما يدل على أنه كان ظريفاً جميل المحضر . ونراه يتحول منذ اليوم الأول فى خلافته داعية كبيراً من دعاته ، بل لقد تحول إلى ما يشبه أداة إعلام ، فليس هناك عمل ينهض به المتوكل إلا ويدعو له إن احتاج إلى دعوة ، بل إنه ليبالغ فى الدعوة له مبالغة مفرطة . وليس هناك عمل يستحق التنويه إلا ويهتف به فى أشعاره ويشيد إشادة بعيدة ، وحتى هو إن غضب على بعض الوزراء أو بعض الكتّاب والعمال رأيناه يَسْقط عليهم بسياط أشعاره طالباً لهم التنكيل الشديد . وكان أول عمل عامّ نهض به المتوكل وقفه محنةَ القول بخلق القرآن على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ؛ فقد كان الخلفاء منذ المأمون جعلوا هذا القول عقيدة رسمية للدولة ، وعَنَتُوا بالفقهاء المنكرين لذلك وفى مقدمتهم أحمد بن حنبل عنفاً شديداً ، حتى إذا ولى المتوكل وقف هذه المحنة التى أوشكت أن تؤدى إلى فتنة خطيرة ، وبذلك أفل نجم أصحابها من المعتزلة الذين كانوا يُغْرون الخلفاء بها وسطع نجم الفقهاء وأهل السنة . ولا يزال ابن الجهم يُشيد بهذا الصنيع ، إذ رأب المتوكل صدع فتنة كان يخشى أن تتفاقم وتؤدى إلى شر خطير ، ونراه فى أثناء ذلك يكيل هجاء ذميماً للمعتزلة ، حتى ليصفهم بالكفر على شاكلة قوله[٢] :

قام وأَهلُ الأَرض فى رَجْفةٍ يَخْبِطُ فيها المقبلَ المدبرُ
فى فتنة عمياءَ لا نارُها تخبو ولا مُوقدها يفْتُرُ
فقال والأَلسنُ مقبوضةٌ ليُبْلغِ الغائبَ من يَحْضُرُ
إنِّى توكلتُ على الله لا أُشركُ بالله ولا أَكْفُرُ
لا أَدَّعى القدرةَ من دونهِ بالله حَوْلِى وبهِ أَقْـدِرُ

(١) الديوان ص ١٣٦ وانظر العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/٣٢١ .
(٢) الديوان ص ٧٣ .

وابن الجهم يزعم فى الأبيات أن القول بأن القرآن مخلوق من شأنه أن يؤدى بالإنسان إلى الكفر والشرك بالله ، وقد مضى ينفى عن المتوكل القول بحرية الإرادة وأن الإنسان يصرّف أفعاله كما تشاء له قدرته ، على نحو ما كان يؤمن المعتزلة ، فهو سنىٌّ يأخذ بأقوال أهل السنة ، وبأن كل شىء بقضاء وقدر مقدور على الإنسان لا حول له إزاءه ولا قوة . ونراه فى نفس القصيدة يزعم بأن أبا بكر قضى على الردة الأولى فى الإسلام وأن المتوكل قضى على هذه الردة الثانية للمعتزلة . وكل ذلك زلل منه ، وكان حريا به ألا يرسل لسانه فى المعتزلة وأن يقف بعيداً عن خصومتهم ، أو على الأقل ألا يصمهم بوصمات الردة والشرك والكفر ، ولكنه كان قد وضع نفسه موضع الداعية للمتوكل وأعماله المحامى عنه أمام خصومه ، فبالغ وتورط فى مبالغته أكثر مما ينبغى .

ومشكلة ثانية تورط فيها على نحو ما تورط ضد المعتزلة مندفعاً وراء المتوكل إذ كان شديد الانحراف عن على بن أبى طالب وآله ، ومَرَّ بنا فى غير هذا الموضع ما يصور مدى هذا الانحراف إذ أمر فى سنة ٢٣٦ بهدم قبر الحسين فى كربلاء وهدم ما حوله من الدور وأن يُحْرَثَ موضع القبر ويُزْرَع ما حواليه ، ونرى ابن الجهم منذ ولى المتوكل الخلافة يُبْدِئ ويعيد فى أن العباسيين أولى الناس بالأمر وحكم الأمة . وحقاً بدأ ذلك عنده فى مدائحه للمعتصم ، ولكنه أصبح الآن نغماً مستمراً يوقعه على قيثارته كلما مدح المتوكل ، فبَيْته أحق من البيت العلوى بالخلافة ، وهم أفضل الناس وخيرهم جميعاً علويين وغير علويين ، أما المتوكل فهو صفوة الله ، اختاره لعباده ، بل هو الميثاق والعهد الذى عاهد الله الناس عليه أن يسمعوا ويطيعوا ، يقول له[1] :

أنت ميثاقنا الذى أخذ اللـ ـهُ علينا وعهدُه المسئولُ
بك تَزْكو الصلاةُ والصومُ والحـ ـجُّ ويزكو التسبيحُ والتهليلُ

وكان هذا الموقف من على يثير عليه الشيعة ويجعلهم يبطنون له ضغينة مماثلة لما كان يبطنه له المعتزلة . وبجانب ذلك كان المتوكل كلما نكب أحداً زيَّن عمله للرعية ،

---

(١) الديوان ص ٢٥ .

ومعروف أنه نكب لأول عهده ابن الزيات وعذبه فى سجنه حتى مات ، وكذلك نكب عمر بن فرج الرُّخَّجِيّ وكان من عِلْيَة الكتاب ومشاهيرهم ، وينوّه ابن الجهم بعمله وأنه إنما انتقم منهما للرعية ، إذ كان ابن الزيات — فى رأيه — ظالمًا جائرا يُزْرِى على سنن النبي ، وكان الرخجي يجور فى أحكامه وتصرفاته (١) . ويعقد المتوكل البيعة فى سنة ٢٣٥ لبنيه الثلاثة محمد المنتصر وأبى عبد الله المعتز وإبراهيم المؤيد عاهداً إليهم بولاية العهد على التوالى ، فيشيد ابن الجهم بهذا الصنيع وأن المتوكل أراد به صلاح الدين (٢) . وأمر المتوكل كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع لسنة ٢٣٥ بأن يلبس النصارى وأهل الذمة جميعًا الطيالسة العسلية تمييزاً لهم ويشدُّوا فى أوساطهم الزنانير وكتب بذلك إلى عماله فى الآفاق ، فقال ابن الجهم (٣) :

العَسَلِيَّاتُ التى فَرَّقَتْ بين ذوى الرِّشْدَةِ والغَىِّ
وما على العاقل أنْ يَكثروا فإنه أكثَرُ لِلْفَىِّ

وآذى البيتان النصارى وأهل الذمة جميعًا ، وبذلك لم يوغر صدور المعتزلة والشيعة عليه وحدهما ، فقد أوغر أيضًا صدور النصارى وأهل الذمة ، ولم يَقِفْ إيغارُه الصدور عند هذه البيئات الثلاث ، فقد أوغر أيضًا صدور حاشية المتوكل جميعًا شعراء وغير شعراء ، وكان منهم مروان بن أبى الجنوب والبحترى والحسين بن الضحاك وعلى بن يحيى المنجم وأبو العَيْناء وابن حمدون وعَزّون وبَخْتيشُوع الطبيب النصرانى وعبادة المضحك ، وساءهم جميعًا أنه كان كثير السعاية بهم إلى المتوكل والذكر لهم بالقبيح عنده ، وتصدّى له منهم البحترى ومروان بن أبى الجنوب يهجوانه . وأخذ هؤلاء الندماء يسعون به إلى المتوكل ، فتارة يقولون له إنه يجمِّش غلمانك ويلاعبهم ، وتارة ثانية يقولون له إنه كثير الإزراء عليك . وساعدهم كثيرون من حاشية المتوكل ممن لم نسمهم ، وكان منهم المعتزلى والشيعى والنصرانى ومن يودلو انتقم منه شر انتقام ، غير من كان يحسده على منزلته من المتوكل ، فما زالوا يقعون فيه حتى ملأوا قلب المتوكل غيظًا وحنقًا عليه ، فأمر بحبسه لسنة ٢٣٧ ونراه يرسل إلى أخيه من سجنه بقصيدة يصور فيها تجلده لنكبته وشكواه من رفاقه شكوى أليمة وأن

(١) الديوان ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ١٢٥ .

(٣) الديوان ص ١٩٢ والفى فى البيت الثانى : الفىء وهو الغنيمة .

أحداً منهم لم يحام عنه فى بلائه ، بل لقد خذلوه جميعاً ، وما يلبث أن يقول [١] :

تضافرتِ الرَّوافِضُ والنَّصَارَى وأَهلُ الإِعتزال على هجائى

وكأنه كان يعرف فى وضوح خصومه الذين ما زالوا يرجفون به عند المتوكل حتى ألقى به فى غياهب السجون ، إنهم المعتزلة والشيعة والنصارى من حواشى الخليفة ثم منافسوه من الشعراء والندماء وإن لم يتعرض لهم فى هذه القصيدة بالذكر ؛ ويقول ابن المعتز : « إنما عَنَى بالروافض الطاهريين وبأهل الاعتزال بنى دؤاد وبالنصارى بختيشوع بن جبريل» [٢] . ومعروف أن الطاهريين هم أسرة عبد الله بن طاهر ، وكان ابنه محمد حاكماً لبغداد لعهد المتوكل ، وكان ابنه طاهر — كما أسلفنا — والياً لخراسان بعد أبيه عبد الله ، وأسرَّها طاهر لابن الجهم كما سنرى عما قليل . وكان أحمد بن أبى دؤاد رأساً من رءوس الاعتزال ، كان المتوكل يفسح له فى مجالسه ، لأنه كان أحد من أخذوا له البيعة بعد وفاة الواثق ، فحفظ له المتوكل صنيعه ، على أنه لم يلبث أن نكبه هو وابنه أبا الوليد بعد نكبته لابن الجهم . أما بختيشوع فكان لا ينسى له ذكره العسليات فى بيتيه السابقين وكان يكنُّ له عداوة شديدة .

وظل ابن الجهم فى محبسه يتوسل إلى المتوكل أن يعفو عنه ، مرسلا له بقصائد يصور فيها ولاءه له وإخلاصه ووفاءه ، منددا بخصومه بل هاجياً لهم أشد الهجاء وأعنفه ، ورقَّ له المتوكل فردَّ إليه حريته بعد عام ولكن بطانة السوء من حوله دبروا لابن الجهم مكيدة لا تُقْبَلُ فيها التعلاّت والمعاذير ، إذ اتهموه عند المتوكل بأن نفسه سوَّلت له أن يهجوه هجاء قبيحاً ، وثار المتوكل ثورة شديدة وأمر لسنة ٢٣٩ بمصادرة أمواله ونفيه إلى خراسان وكتب إلى أميرها طاهر بن عبد الله أن يُصْلَبَ يوماً إلى الليل ، فلما وصل إلى ضاحية من ضواحى نيسابور تسمى الشَّاذياخ حبسه طاهر بها ، ثم أُخْرج من محبسه وصُلب يوماً إلى الليل مجرَّداً ثم أُنْزل [٣] ، وكأن طاهراً رأى فى ذلك فرصة

---

(١) الديوان ص ٨٤ .

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢٠ .

(٣) أغانى ١٠ /٢٠٨ .

أن يقتصَّ من ابن الجهم على هذا النحو البشع ، لوصفه السالف له هو وبيته فى أشعارِهِ بأنهم روافض أو شيعة غالية ، وكأنما يريد أن يسجل عليهم الخيانة للمتوكل ودولته . وظل فى سجن طاهر بالشاذياخ إلى أن كتب إليه المتوكل بإطلاقه فأطلقه ، ومَثَل ابن الجهم بين يديه ، يقول :

أَطاهرُ إِنى عن خراسانَ راحِلُ ومسْتخْبَرٌ عنها فما أَنا قائلُ

فقال له طاهر : لا تقل إلا خيراً فإنى لا أفعل بك إلا ما تحبّ ، ووصله وحمله وكساه (١) ، وأخذ يبتغى إلى مودته كل الوسائل . ويبقى ابن الجهم فى جواره مدة يَسْمُر فيها عنده ويلزمه فى غدوه ورواحه إلى الصيد (٢) . وكان طبيعيًّا أن تترك هذه المحنة التى طالت سنواتها والتى شقى بها فى بغداد وخراسان شقاء شديداً ظلاًّ كئيبًا على نفسه حتى لنراه عقب ردّ حريته إليه يطيل المكث فى القبور ، ويسأله رجل ما يجلسك بين المقابر ، فيجيبه (٣) :

يشتاق كلٌّ غريبٍ عند غربتهِ ويذكر الأَهلَ والجيران والوطنا
وليس لى وطنٌ أَمسيت أَذكره إلا المقابر إذ صارتْ لهم وطنا

وعاد ابن الجهم إلى العراق ، ولكنه لم يولّ وجهه نحو سامرَّاء ؛ فقد ازورَّ عنه المتوكل وأُغلقت أبواب قصوره من دونه ، إنما ولَّى وجهه نحو بغداد ، ونراه حينئذ يأسى لانصراف الناس عنه ، فقد تغيَّر عليه الخليفة فتغير عليه الناس جميعًا ، ولم يعد يجد من بينهم الصديق الوفىّ ولا الأخ المخلص ، وحزن لذلك حزنًا شديداً ، وأداه حزنه إلى أن يُغْرق أساه فى كئوس اللهو علَّها تنسيه كارثته ، ولزم جماعة ماجنة من فتيان بغداد كانوا يختلفون إلى منزل مقيِّن (نخَّاس) بالكرخ يسمى المفضَّل ، كان منزله مكتظًّا بالجوارى العابثات اللائى يتفنَّنّ فى جذب الشعراء والشباب إليهن ، ومرت بنا فى الفصل الثانى أبيات لابن الجهم من قصيدة يصف فيها هؤلاء الجوارى وكيف كن يَعْبَثْن بقلوب الفتيان ويَسْعَرْن أفئدتهم ناراً (٤) . ويُنْعَى إليه المتوكل لسنة ٢٤٧ للهجرة فيرثيه رثاء حارًّا . وماتوافى سنة ٢٤٩ حتى يتناقل العالم

---

(١) أغانى ١٠/٢٠٩ وما بعدها.

(٢) أغانى ١٠/٢٢٧.

(٣) أغانى ١٠/٢٢٤.

(٤) الديوان ص ٥٢

العربى المأساة التى سبق أن أشرنا إليها فى الفصل الأول ، وهى مقتل البطلين عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى فى حروب الروم ، ويتصايح المتطوعون لتلك الحروب فى كل مكان ، ونجد ابن الجهم كأنما يثوب إلى نفسه أخيراً ، فيعتزم الجهاد فى سبيل الله مع المجاهدين ، ويخرج فى قافلة إلى حلب لغزو الروم ، ويحاول أن يتجه من حلب إلى بعض الثغور[١] ، ويعترضه أعراب من بنى كلب ، ويقاتلونه ، وهو يصيح فيهم بأشعار حماسية ملتهبة ، وتصيبه طعنة قاتلة ، فيقتل شهيداً دون غايته[٢] .

وأشعار ابن الجهم موزعة بين المديح والاستعطاف والرثاء والهجاء والغزل والفخر والوصف والحكمة وجُلُّ مدائحه فى المتوكل ، فقد كاد لا يترك فيه فضلا لغيره ، ومرَّ بنا آنفاً أنه ظل منذ توليه الخلافة سنة ٢٣٢ للهجرة حتى سنة سجنه وسخطه عليه يسجل كل أعماله ، بل لقد تحول داعية له ، يحامى عنه ويدافع ، بل يبرر ويزين ما يصدر عنه من فعل ، وظل ينوه بموقفه من المعتزلة وفتنة خلق القرآن ؛ بمثل قوله[٣] .

بهِ سَلم الإسلامُ من كل ملحدٍ وحَلَّ بأهل الزَّيْغِ قاصمةُ الظَّهْرِ

وبالمثل كان يندد بالشيعة والعلويين ، وكان ما يزال يرفع من المتوكل والعباسيين ، حتى ليجعلهم فوق كل الناس علويين وغير علويين ، وحتى ليقول[٤] :

لنا فى بنى العباس أكرمُ أسوةٍ فهم خيرُ خلق اللهُ طُرًّا وأفْضَلُ

ويقول للمتوكل[٥] :

ولن يُقْبَل الإيمانُ إلا بحبِّكم وهل يقبل الله الصلاةَ بلا طُهْرِ

وكان لا ينى يمدح المتوكل بحب الخير والرفق بالرعية والصفح عن الزلات ونشر الأمن الذى يحرر الناس من الخوف ونشر العدل الذى لا تصلح الحياة بدونه ، يقول[٦] :

---

(١) تاريخ بغداد ١١ / ٣٦٩ .
(٢) الأغانى ١٠//٢٣٣ وما بعدها .
(٣) الديوان ص ٢٢٢ .
(٤) الديوان ص ٧٠ .
(٥) الديوان ص ١٤٨ .
(٦) الديوان ص ٣٥ .

ملكٌ باسطُ اليَدَيْن إلى الخَيْـ ـرِ صفوحٌ عن الذنوب غفورُ
أَمَّن الناس واستفاض به العدْ لُ فلا خائفٌ ولا مقهورُ

وله فى المتوكل وراء مدائحه تهنئة بعيد المهرجان ، ونراه يسوق فى فاتحتها دعوة للصبوح بالخمر من أيدى الخُرَّد الغيد ، ويُشيد بمجالسها وما فيها من غناء تهفو إليه النفوس ، ثم يأخذ فى مديح المتوكل وأن خلافته تفتح للناس أبواب الرحمة على مصاريعها وما تزال تمسهم بأجنحة من الرفق والعطف ، ويعلن فى صراحة صريحة أنه خراسانى من شيعة بنى العباس أصحاب الرايات السود شعارهم أو كما يسميها الخرق السود ، يقول[1] :

نحن أبناءُ هذه الخرقِ السُّو دِ وأهل التشيُّع المحمودِ

وأروع من هذه التهنئة تهنئة المتوكل بقضاء قائده بُغا قضاء مبرمًا على إسحق ابن إسماعيل الثائر بأرمينية وهى أرجوزة أنشدها ارتجالا ، وفيها يصور بأس الجيش العباسى فى تلك الحرب ، وكيف كان يهدم الحصون هناك بمجانيق ترسل عليهم صواعق من حجارة السجيل ، يشير بذلك إلى سورة الفيل ، وقد تَخلل الاقتباس منها أبياته[2] ، وهى تدل على طواعية الشعر له وأنه كان يصدر فيه عن نَبْع غزير .

ويدخل ابن الجهم السجن ، ويتحول من مديح المتوكل إلى استعطافه ، ونراه فى ميمية قدَّمها إليه يذكر سِنَّه التى أشرفت على الخمسين ، وكيف أن الناس أخذوا ينكرونه لإنكار الخليفة له ، ويظل يأسى لقلة الصديق حتى يقول للمتوكل مستعطفًا[3] :

أما وأميرِ المؤمنين لقد رمى الـ ـعدوَّ فلا نِكْساً ولا متهضِّما
ولا ناسياً ما كان من حسن رأيه لخُطَّة خَسْفٍ سامنيها محتِّما

فخطة الخسف والظلم والهوان ستنقشع عنه ، ولكنها لم تنقشع ، فعاد إلى

---

(١) الديوان ص ٣٥ .
(٢) الديوان ص ١٧٦ .
(٣) الديوان ص٢١ .

استعطافه فى لامية له استهلها بالحديث عن الصبر الجميل ، ويسترسل فى مديحه ، ويقول إنه خير خلق الله وأعدلهم وأشدهم توخياً للإنصاف ، وكأنه يشير إلى ما يأمل منه من العفو والصفح والغفران حين يقول(١) :

يعاقب تأديباً ويعفو تطوُّلا ويَجْزِى على الحُسْنى ويعطى ويُجْزِلُ
ولا يُتْبِع المعروف مَنًّا ولا أذًى ولا البُخْلُ من عاداته حين يُسْأَلُ
رعاك الذى استرعاك أمرَ عبادِهِ وكافاك عنا المنعم المتفضِّلُ

وينكل به طاهر بن عبد الله بن طاهر ، كما أسلفنا ، وكان يمدح أباه وبيته ، غير أنه زلّ زَلَّته التى تحدثنا عنها حين أحسّ أن الطاهريين لا يتوسطون له عند المتوكل ولا يهمهم أمره ، فسماهم رافضة ، وكأنما أراد من المتوكل أن يَطير بهم طيرةً بطيئاً سقوطها ، وظل طاهر يسرّها له ، حتى تمكن منه ، ويرسل له ابن الجهم من سجنه فى الشاذياخ شعراً يستعطفه به من مثل قوله(٢) :

إن كان لى ذنبٌ فلى حُرْمَةٌ والحقّ لا يدفعه الباطـلُ
وحُرْمتى أعظمُ من زلَّتى لو نالنى من عدلكم نائل

ولكن الزلة فى رأى طاهر كانت أكبر من الحُرْمة ، فلم يأبه باستعطافه ، حتى أمره المتوكل برد حريته إليه . حينئذ خشى معرَّة لسانه ، فقرَّبه منه وجعله من ندمائه وجلسائه .

ولابن الجهم مراث قليلة فى مقدمتها مرثيته لعبد الله بن طاهر ، يعزى بها طاهراً ابنه ، مصوراً عظم الفادحة فيه ، حتى ليظن كأن ركناً من أركان الإسلام انقضّ انقضاضاً ، فى يوم عبوس من أخنى الأيام وأشدها بلاء على الأنام ، على نحو ما يقول فى مطلعها(٣) :

أى ركنٍ وَهَى من الإسلامِ أى يومٍ أَخْنَى على الأيامِ

ومضى يعزى آل الفقيد مصوراً عظم الكارثة فيه ، ثم انتقل إلى مديح طاهر

(١) الديوان ص ١٦٥ .
(٢) الديوان ص ١٦٩ والأغانى ١٠/ ٢١٨.
(٣) الديوان ص ١٨٢.

ابنه وأنه نعم الخلف لسلفه . وأهم من هذه المرثية مرثيته لصديقه الروحى أبى تمام ، وهى أبيات أربعة صور فيها شاعريته وكيف عدتْ عليها الأيام ، حتى إن الشعر ليبكيه بكاء مرًّا ، فقد هلك مثقفه ومروّض قوافيه وجفّ غدير روضته ، وجفت بدائع فطنته ، يقول(١) :

غاضَتْ بدائعُ فطنةِ الأَوهامِ ... وعـدتْ عليها نكبةُ الأَيَّامِ

وغدا القريضُ ضئيلَ شخصٍ باكياً ... يشكو رزيَّته إلى الأَقلامِ

وتـأَوَّهت غُرَرُ القوافى بعده ... ورمى الزمانُ صحيحها بسقامِ

أَودى مثقِّفها ورائضُ صعبها ... وغديرُ روضتها أَبو تمام

ومرّ بنا أنه رثى المتوكل رثاء حارًّا حين قتله بعض حرسه وحواشيه ، وهو يستهل رثاءه له بوصف سحابة أطلّت العراق وملأته أمطاراً وخصباً ، غير أن عاصفة هوجاء نَحّتْها عنه ، وكأنما يرمز بها إلى المتوكل ، ثم أخذ يتفجع عليه تفجعًا مريراً ، مزريًا على جنوده أن لم ينصروه . منددًا بمن قتلوه تنديداً شديداً (٢) .

والهجاء عنده ليس كثيراً ، وهو يَخِزُ فيه وخز الإبر ، وأحيانًا يطعن طعنات دامية ، مما جعل ابن المعتز يقول : إنه كان هَجّاء يضع لسانه حيث يشاء ، ويقول المسعودى : « كان فى لسانه فضل قَلَّ مَنْ سلم معه منه » ، ولعله يقصد تعرضه للشيعة والعلويين والمعتزلة ، وكان يشتد هجاؤه حين يحس بأنه أوذى أو وقعت عليه إهانة ، وممن تعرّض لهم بالهجاء كثيراً أحمد بن أبى دؤاد شيخ المعتزلة ، لأنه سأله الشفاعة حين أمر المتوكل بحبسه فقعد عنه ولم يهتم به ، حتى إذا نكبه المتوكل شمت به هو وابنه أبى الوليد ، وسلّ عليهما لسانه بمثل قوله(٣) :

يا أَحمدُ بنَ أَبى دُؤادٍ دعوةً ... بعثتْ إليك جنادلا وحديدا

ما هذه البِدَعُ التى سميتها ... بالجهل منك العدلَ والتوحيدا

أَفسدت أَمرَ الدين حين وليتَه ... ورميته بـأَبى الوليد وليدا

---

(١) الديوان ص ١٨١ .

(٢) الديوان ص ٥٦ .

(٣) الديوان ص ١٢٥ .

openkandi.com

وكان أبو الوليد يتولى المظالم بسامرّاء وعزله عنها المتوكل حين صادر أمواله وأموال أبيه لسنة ٢٣٧ وابن الجهم يشير بالعدل والتوحيد إلى مبدأين أساسيين فى الاعتزال، إذ كان المعتزلة يوجبون العدل على الله مما أداهم إلى القول بفكرة خلق الناس لأفعالهم وحرية إرادتهم حرية تامة دون جبر أو إلزام ، حتى يثابوا ويعاقبوا على أعمالهم وما يأتون من الخير والشر . وأما التوحيد فأرادوا به تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين ، بحيث لا يحصره مكان ولا زمان . وكان مروان بن أبى الجنوب كثير التعرض له يذمه ويهجوه ، ويقال إنه هجاه يوماً فى مجلس المتوكل ، فأطرق ثم رماه بهذين البيتين المُصْمِيَيْن (١) :

بلاءٌ ليس يشبهه بلاءُ عداوةُ غير ذى حسبٍ ودينِ
يُبيحك منه عِرْضاً لم يَصُنْهُ ويَرْتَعُ منك فى عِرْضٍ مصونِ

وقد جرّده من الحسب والدين والعرض والشرف .

ولابن الجهم غزل كثير ، وهو تارة يضعه فى مقدمات قصائده ، مذيباً فيه لواعج حبه ، وتارة يفرده بمقطوعات تصور ما يثير الحب فى فؤاده من العواطف والمشاعر ، ومن مقدماته المشهورة التى طارت على كل لسان قوله فى فاتحة إحدى مدائحه للمتوكل (٢) :

عيونُ المَهَا بين الرُّصافة والجِسْرِ جَلَبْنَ الهَوَى من حيث أدْرِى ولا أدْرِى
أَعَدْنَ لىَ الشَّوْقَ القديم ولم أكن سلوتُ ولكنْ زِدْنَ جَمْرًا إلى جَمْرِ

وهو تصوير بديع لما ترسل العيون من سهام الحب التى تفد من كل مكان مكشوف وخبىء من حيث يدرى ابن الجهم ومن حيث لايدرى، وقد أعَدْنَ له جذوة الحب القديم التى لا سبيل إلى إطفائها وأوقدن بجانبها جذوات كثيرة حديثة ، وقلبه يلتاع لوعة شديدة . ومضى يتحدث عن صواحب تلك العيون وكيف أنهن يُضِئْنَ من بعيد كالأهلة تتزود منها الأبصار ، ولامتاع سوى متاع النظر والخيال ،

(١) الديوان ص ١٨٧ .
(٢) الديوان ص ٢٢٠ .

وقد التهبت منه جوانح الفؤاد ، ويشكو المشيب ويذكر اقتطافه زهرات الحب ذات ليلة ، ثم يعود إلى الشكوى من الهجر والفراق ، ويجرى حواراً طريفًا عن حبه بين فتاتين تتبادلان الرأى فى وصله وصَدِّه ، ومن طريف ما له فى الغزل قوله(١) :

سَقَى اللهُ ليلا ضَمَّنَا بعد فُرْقة ... وأدنى فؤادًا من فؤادٍ معذَّبِ

فبتَنْا جميعاً لو تُرَاقُ زُجاجةٌ ... من الرَّاح فيما بيننا لم تَسَرَّبِ

وكأنهما أصبحا روحين فى بدن .

والفخر كثير فى أشعار ابن الجهم ، وهو يردد الفخر بقرشيته وبفتوته التى أغرته بأن يكون صاحب لهو ومجون على الأقل فى فترات من حياته ، وصوَّر حين حُبس وصُلب عريانًا صلابة نفس غير مألوفة ، إذ ظلت نفسه قوية وظلت لا تنكسر أبداً ، ويستشعر هذا المعنى فى عمق حين يفتتح إحدى قصائده التى استعطف بها المتوكل بقوله(٢) :

هى النفس ما حمَّلتها تتحمَّل ... وللدهر أيامٌ تجور وتعدلُ

ولا عار إن زالتْ عن الحرِّ نعمةٌ ... ولكنَّ عارًا أن يزول التجمُّلُ

وكان لا يزال يشعر بقرشيته وأنه من أرفع الأسر العربية مكانة وأعلاها منزلة ، وكاد له خصومه عند المتوكل واستتبع كيدهم السجن والقيود والأغلال والظلم والعسف ، ولكنه احتمل وقاوم ، حتى ليقول لبعض صواحبه(٣) :

فلا تجزعى إمَّا رأيتِ قيودَه ... فإن خلاخيلَ الرجالِ قيودُها

إنها ليست قيوداً وسلاسل بل هى حلِيّ الرجولة والفتوة ، وهو خليق أن يتحلَّى بها مهما عرضته لشر أو ضيق أو ضر ، ويحاول مراراً وتكراراً أن يظهر تجلده واحتماله لأثقال السجن وقيوده ، فنفسه لا تضعف ولا تهون ، بل لعل نيران هذه المحنة قد زادتها صلابة فوق صلابة ، إنها من جوهر كريم لا تذيبه المحن والخطوب

(١) الديوان ص ٩٥ .

(٢) الديوان ص ١٦٢ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٢١ .

(٣) الديوان ص ٥١ .

obeikandi.com

ولا كل ما يسام به من ضروب الخسف والعسف، ويبلغ ابن الجهم من ذلك حداً يفوق كل وصف حين يقول لصاحبته[١] :

قالتْ حُبِسْتَ فقلتُ ليس بضائرى ... حَبْسى وأىُّ مهنَّدٍ لا يُغْمَدُ[٢]
أو ما رأيتِ اللَّيْثَ يَأْلَفُ غِيلَهُ ... كِبْرًا وأوباشُ السِّباع تردَّدُ[٣]
والشمسُ لولا أنها محجوبَةٌ ... عن ناظريك لما أضاء الفَرْقَدُ
والبَدْرُ يُدْرِكه السِّرارُ فتَنْجَلى ... أيَّامُهُ وكأنَّهُ متجـدِّدُ[٤]
والغَيْثُ يَحْصُرُهُ الغمامُ فما يُرَى ... إلا وريقُهُ يَراحُ ويَرْعُدُ[٥]
والنارُ فى أحجارها مخبوءةٌ ... لا تُصْطَلَى إن لم تُثِرْها الأَزْنُدُ
والزَّاعِبِيَّةُ لا يقيم كعوبَهـا ... إلا الثِّقافُ وجذْوَةٌ تتوقَّدُ[٦]

وهو يمثل نفسه لصاحبته سيفاً مسلولا وُضع فى غمده، بل كأنه أسد فى أجَمته وشمسٌ فى حجابها وبدرٌ فى سِراره، بل لكأنه غيث مضمر فى غمامه ونار مكنونة فى زندها ورمح يَصْقله مثقفه. وهى صور تعبر عن نفس صلبة قوية وأنها ظلت على الرغم من محنة السجن سالمة لم يصبها وَهَنٌ ولا خَوَرٌ. ويُنْفَى إلى خراسان ويُسْجَن ويصلبه أميرها يوماً عارياً وتظل له نفسه الصلبة ويزأر منشداً[٧] :

ما عابه أن بُزَّ عنه لِباسُهُ ... فالسيفُ أهولُ ما يُرَى مسلولا

فهو مثل السيف أهول وأهيب ما يُرَى حين يُجَرَّد من غمده ويصوَّب إلى الرقاب.

ولابن الجهم أشعار كثيرة فى وصف الطبيعة الصحراوية وأطلالها ونوقها وفى وصف الطبيعة الحضرية ورياضها ورياحينها، ومرت بنا فى الفصل الماضى قطعة له بديعة

---

(١) الديوان ص ٤١ والأغانى ١٠/٢١٣ .
(٢) المهند : السيف .
(٣) الغيل : أجمة الأسد .
(٤) السرار : آخر أيام الشهر .
(٥) ريق الغمام : أوله . يراح : تكثر معه الرياح والعواصف الممطرة .
(٦) الزاعبية : ضرب من الرماح المصعية .
(٧) الديوان ص ١٧٢ .

فى وصف الورد وتهاديه ووصف شذاه العطر الذى يشفى القلوب الكليمة ، وله أشعار مختلفة فى وصف اللهو والملاهى ، ومن قوله فى وصف مجلس أنس[١] :

الوَرْدُ يضحكُ والأَوتارُ تَصْطَخِبُ والنَّاىُ يندبُ أَشْجَاناً ويَنْتَحِبُ
والرَّاحُ تُعْرَضُ فى نَوْر الربيع كما تُجْلَى العروسُ عليها الدرُّ والذهب

وقد مضى يصور نشوته بالراح وبالورد وبالغناء . وأنشدنا فى الفصل الماضى قطعة من وصفه لقصر من قصور المتوكل ونافورته العجيبة ، وكذلك وصفه للُعْبة الشطرنج وله قصيدة جيدة فى وصف سفينة[٢] .

وجعلته نكبته يكثر من التأمل فى الحياة وفى سلوك الناس وأخلاقهم وأصنافهم ، مما جعل تجاربه تتسع وجعله ينثر منها كثيراً فى أشعاره من مثل قوله[٣] :

ومَنْ طلب المعروفَ من غير أَهلهِ أَطال عناءً أَو أَطال تندُّما
ومَنْ سامح الأَيام يَرْضَ حياته ومَنْ مَنَّ بالمعروف عاد مذمَّما

وواضح مما أسلفنا من أشعار ابن الجهم أنه لم يكن ممن يتكلفون فى أشعارهم ولا ممن يكثرون من ترصيعها بأصناف البديع وأصدافه ، ومما لا ريب فيه أن ملكاته كانت خصبة ، وكان كثيراً ما يلم بمعان دقيقة وصور طريفة مع سهولة الألفاظ ومع شفافيتها وصفائها ومع نصاعتها ورصانتها ومع جمال الجرس والأداء .

٢

البحترى[٤]

هو أبو عبادة الوليد بن عُبَيْد ؛ طائىُّ الأب شَيْبانىُّ الأم غلب عليه لقب البحترى نسبة إلى عشيرته الطائية بُحْتُر ، ولد سنة ٢٠٤ للهجرة بِمَنْبِج إلى

---

(١) الديوان ص ١٠٥ .
(٢) الديوان ص ١١٤ .
(٣) الديوان ص ٢٠ .
(٤) انظر فى البحترى وشعره الأغانى (طبعة الساسى) ١٨ /١٦٧ ، والموشح للمرزبانى والموازنة بين الطائيين للآمدى ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٩٤ ، ٤٥٨ والشريشى على مقامات الحريرى ١/ ٤٠ وعبث الوليد لأبى العلاء ، وأخبار البحترى للصولى (طبع المجمع العلمى العربى بدمشق) =

الشمال الشرقى من حلب على الطريق المؤدية منها إلى الفرات ، وقيل : بل وُلد بقرية تجاورها تسمَّى « زَرْدفنة » والرأى الأول أصح ، لأن البحترى نفسه يكرّر كثيراً فى شعره « مَنْبج » مسقط رأسه ، وكانت تنزلها عشائر من طيئ ، وهى كما يقول ياقوت فى معجم البلدان : مدينة كثيرة البساتين عذبة الماء باردة الهواء ، أقطعها الرشيد عبد الملك بن صالح الهاشمى ، وفى ديوان البحترى مدائح كثيرة لابنه محمد ولطائفة من أسرته عاشت فى منبج وحلب .

وليس لدينا أخبار عن هيئته وصورته إلا ما رُوِىَ عنه فيما بعد من أنه كان أسمر طويل اللحية ، وقد نشأ فى أحضان عشيرته يتغذى من فصاحتها ويبدو أنه اختلف مبكراً إلى الكتّاب ، فحفظ القرآن أو شطراً كبيراً منه ، كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب ، واختلف حين شبَّ إلى حلقات العلماء فى المساجد يأخذ عنهم اللغة والنحو وشيئًا من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام . واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه فى بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته أو كما يقول ابن خلكان من أصحاب البصل والباذنجان ، وامتد به طموحه فتجاوز به بلدته إلى بلاد أكبر من حولها ؛ إذ نراه ينزل حلب ، وهناك تعرَّف على علوة بنت زريقة التى شغفته حبًّا ، ويبدو أن زريقة كانت مغنية ، وتعرَّف أيضًا على صديق يسمى الذفافى مدحه ببعض شعره ، وهجاه فيما بعد لاقترانه بعلوة ، على شاكلة قوله[1] :

نُبِّئْتُها زُوِّجَتْ أَخا خَنَثٍ أَغَنَّ رَطْبَ الأَطراف لَيِّنَها

وظلت دار علوة قائمة بحلب ، حتى عصر ياقوت إذ يقول : « وفى وسط البلد "حلب" دار علوة صاحبة البحترى» . وقد يدل ذلك على يسار الذفافى وأنه شيد لها داراً فخمة . وظلت ذكراها لا تبرح ذاكرة البحترى حتى الأنفاس الأخيرة من

= وتاريخ بغداد ١٣ /٤٤٦ ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٩ /٢٤٨ ، وابن خلكان ، ومرآة الجنان لليافعى ٢/٢٠٢ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٣/١٨٦ والنجوم الزاهرة ٣/ /٩٩ ، وحياة البحترى وفنه لأحمد أحمد بدوى ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة — طبع دار المعارف) وديوانه بتحقيق حسن الصيرفى ومقدمته (طبع دار المعارف) .

(١) الديوان ٤ /٢٣٢٥ .

حياته . واتسع برحلاته إلى حمص ، وكأنما كان السَّعد معه على ميعاد ، فإذا هو يسمع بأن أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فعرض عليه شعره ، فأقبل عليه ، وقال له : أنت أشعر من أنشدنى فكيف حالك ، فشكا إليه خَلَّة ، فكتَب إلى أهل معرَّة النعمان : « يصل كتابى مع الوليد أبى عبادة الطائى وهو على بذاذته " سوء حاله " شاعر فأكرموه » واستقبلوه استقبالا حسنًا ووظَّفوا له أربعة آلاف درهم[١] . وفى رأينا أنه لم يصله بأهل معرة النعمان فقط ، فقد وصله أيضًا ببعض ممدوحيه إذ نراه يقبل على بعض من خصَّهم بمديحه فيمدحهم ، مثل آل حميد الطوسى فى الموصل ، وخالد بن يزيد الشيبانى والى أرمينية والثغور ، وأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى الطائى الذى ولاه المعتصم حلب وثغور الشام والجزيرة ، وقد لزمه ولزم ابنه يوسف ، ويبدو أنه أول من اتصل بهم من ممدوحى أبى تمام . وتُخْرج بعض الروايات ذلك مخرج القصص ، فتذكر أنه دخل عليه وأبو تمام عنده ، فأنشده قصيدته :

أأفاق صَبٌّ من هَوًى فأُفِيقا   أم خان عهدًا أم أطاع شَفيقا

فردَّها أبو تمام عليه من حفظه كأنها من نظمه ، وعرَّفه أبو تمام نفسه ، ولزمه البحترى[٢] . ونظن أن الرواة زادوا فيها أنه لم يكن يعرف أبا تمام ، فمعرفته به أسبق من ذلك كما أسلفنا ، بل هو الذى حثه على مديح أبى سعيد الثغرى ولقائه له وهو عنده . ولم يكتف أبو تمام بتقديم الشاعر الشاب إلى بعض ممدوحيه ، فقد مضى يتعهد شاعريته ، ويلقنه كيف يجيد الشعر ويحسنه ، حتى خرَّجه فيه شاعراً ممتازاً راع معاصريه ، ويصرِّح بذلك البحترى معترفًا بجميل أستاذه إذ يقول[٣] :

«كنت فى حداثتى أروم الشعر وكنت أرجع إلى طبع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه . . . حتى قصدت أبا تمام ، فانقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه، فكان أول ما قال لى : يا أبا عبادة تخيَّر الأوقات وأنت قليل الهموم صِفْرٌ من الغموم . واعلمْ أن العادة فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السحر ، وذلك أن النفس قد أخذتْ حظها من الراحة ، وقسطها من

---

(١) أخبار البحترى ص ٥٦ ، والأغانى ١٦٩/١٨ .

(٢) أخبار البحترى ص ٦٣ ، والأغانى ١٦٩/١٨ .

(٣) زهر الآداب للحصرى ١ /١٠١ .

النوم ، فإذا أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقًا والمعنى رشيقًا ، وأكثرْ فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق . وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد ، فأشهرْ مناقبه ، وأظهرْ مناسبه ، وأبنْ معاطه ، وشرّفْ مقامه وتقاصَ المعانى واحذر المجهول منها ، وإياك أن تَشين شعرك بالألفاظ الزريّة . وكن كأنك خيّاط يقطع الثياب على مقادير الأجسام وإذا عارضك الضجر فأرِح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعةَ إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبْه ترشدْ إن شاء الله تعالى » .

وكأنما وضع أبو تمام نُصْبَ عينى البحترى دستوراً قويماً لإحسانه صناعة الشعر ، بل إن هذا بعض الدستور الذى وضعه ؛ إذ لا بد أنه أوصى البحترى وصايا كثيرة حتى يتقن صناعته . وهو فى هذا الجزء من وصاياه ينصحه أن يتخير أوقات إلهامه ، ثم يصف له الجودة التى يقوم عليها النسيب والمديح جميعًا ، مع العناية بدقائق المعانى وجمال الألفاظ والأساليب ، ونظن ظنًّا أنه حين وجد فى تلميذه حسن الاستجابة ، واطمأن إلى أنه شاعر سيكون له شأن ، أخذ يعرّفه لا على أهل معرة النعمان فحسب ، بل أيضًا على ممدوحيه فى حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية . وكاد محمد بن يوسف الثغرى بطل حروب بابك قديمًا وحروب الروم حديثًا أن يستخلصه لنفسه ، وقد ظل يمدحه ويصف بلاءه فى الثغور حتى توفى سنة ٢٣٦ للهجرة ، وتغنّى طويلا بمدح كاتبه محمد بن عيسى القمى ، ويتحول إلى ابنه يوسف الذى خلفه على إمارته الأخيرة فى أرمينية وأذربيجان ويكثر من مدائحه . ونظن ظنًّا أن من أوائل مدائحه لأبى سعيد محمد بن يوسف الثغرى رائيته[1] التى يعزيه فيها عن المعتصم حين توفى سنة ٢٢٧ للهجرة . ويبدو أن أبا تمام دفعه بعد هذا التاريخ لزيارة سامرّاء بعد أن وثق من براعته الشعرية ، إذ نراه ينزل بها ، ونرى أبواب الخليفة الواثق ووزيره ابن الزيات وكاتبه الحسن بن وهب مفتوحة أمامه ، وكأن صداقة أبى تمام للأخيرين

---

(١) الديوان ٢ / ٨٨٢ .

هى التى فتحت له سريعًا تلك الأبواب ، وإذا هو يَمْثُلُ بين أيديهم جميعًا مادحًا ممجداً .

ويتولى الخلافة المتوكل سنة ٢٣٢ للهجرة ويعصف بابن الزيات ويظل البحترى بعيداً خوفًا على نفسه ، وخاصة أنه كانت قد جرت على لسانه بعض أبيات يتعصب فيها للمعتزلة وقولهم بأن القرآن مخلوق ضد أهل السنة من مثل قوله فى بعض الخارجين على أبى سعيد الثغرى :

يرمون خالقهم بأقبح فعلهم ويحرِّفون كلامه المخلوقا

وسأله سائل : أكنت معتزليًا ، فأجابه : «كان هذا دينى فى أيام الواثق ثم نزعت عنه فى أيام المتوكل ، فقال له : يا أبا عبادة ! هذا دين سوء يدور مع الدول ! »[1] . فقد نزع عن نفسه لعهد المتوكل ثوب الاعتزال الذى كان يدين به الواثق ووزيره ابن الزيات ، ولبس ثوب أهل السنة الذى فرضه المتوكل . وهو جانب سيئ فى البحترى إذ كان متقلبًا مسرفًا فى التقلب ، يلتمس المنفعة لنفسه ما وجد إلى ذلك سبيلا . على كل حال أحسَّ بادئ الأمر أن أبواب المتوكل مُوصَدة من دونه ، ولكن ذلك لم يدفعه عن طريقه ، فقد أخذ يمدح بعض خاصَّته وخاصَّة وزيره الفتح بن خاقان وهو يحيى بن على المنجم ، الذى اشتهر بوصله الشعراء بهما وأخذه لهم الصلات السنية منهما ، ووعده على أن يصله بالفتح ، ونراه يستنجز وعده فى بعض شعره[2] ، وينجح على فى وصله بالفتح لسنة ٢٣٣ ويمدحه[3] وينال جوائزه ، ولكن عينه لا تزال طامحة إلى مديح المتوكل ، ويلوّح للفتح بطموحه ويعده الفتح ويتعجله أن يفى بوعده فى غير قصيدة من مثل قوله[4] :

وعدتَ فأوشكْ نُجْحَ وعدك إنه من المجد إعجالُ المواعيد بالنُّجْحِ
وأنت ترى نُصْحَ الإمام فريضةً وإخبارُه عنى سبيلٌ من النُّصْح

(١) أخبار البحترى للصولى ص ١٢٣ .
(٢) الديوان ٢ /١١٣٢ .
(٣) فى أخبار البحترى للصولى ص ٨٣ أن أول قصيدة مدح بها البحترى الفتح بن خاقان لسنة ٢٣٣ هى :

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله
وأبدى الجواب الربع عما تسائله

انظر الديوان ٣/ ١٦١٠ .
(٤) الديوان ١ /٤٤٦ .

ويفتح له المتوكل بيد الفتح أبوابه ، ويستمع إليه وتتواتر صلاته وإقطاعاته عليه ، وكذلك إقطاعات الفتح وصلاته ، فقد كان ديوان الخراج إليه . ونراه يمدح الوزير الثانى للمتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، ولم يكد يترك أحداً من معاونى الفتح ومساعديه إلا مدحه ، فهو يمدح أبا نوح عيسى بن إبراهيم أحد كتّابه فى دواوين الخراج وكان نصرانيًّا ، وكأن نصرانيته لم تمنعه من مديحه ، وسنراه فيما بعد يكثر من مديح عبدون بن مخلد الراهب أخى صاعد وزير المعتمد . ويمدح أيضاً من كتاب الخراج والدواوين أعوان الفتح من أمثال أحمد بن المدبر وأخيه إبراهيم ، ويظل يمدحهما طويلا ، حتى بعد خروج أحمد للعمل فى دواوين مصر والشام . وكان قد ترك زوجته فى منبج وأنجب منها ابنه أبا الغوث فكان كثير الرحلة إلى مسقط رأسه ، ويبدو أنه كان يقضى فى وطنه الصيف كله فراراً من حر العراق ولَفْحه ، يقول[1] :

نَصَبٌ إلى طيبِ العراق وحُسْنِها ... ويمنع منها قَيْظُها وحَرُورها
هى الأَرضُ نهواها إذا طاب فَصْلُها ... ونهرُب منها حين يَحْمَى هَجيرُها

وكان لا يترك وجيها ولا وليًّا ولا صاحب خراج فى طريقه من سامرَّاء إلى منبج إلا ويقدِّم إليه مدائحه ويأخذ جوائزه ، من مثل بنى حميد الطوسى الطائى وأبى سعيد الثغرى وابنه يوسف صاحبى أرمينية وأذربيجان وآل عبد الملك بن صالح الهاشمى ، بل يبدو أنه كان يمد رحلاته فى الشام فيمدح بعض العمال والولاة مثل مالك بن طوق صاحب دمشق والأردن وأبى مسلم الكجّى ، كما كان يمد رحلاته إلى بغداد وما وراءها من مدن العراق ، ونراه يكثر من مديح القائمين عليها من آل طاهر ، فهو يمدح منهم إسحق المصعبى ومحمد بن عبد الله بن طاهر الذى حكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وكذلك أخواه سليمان وعبيد الله ، وله فى الأسرة شعر كثير . وممن أكثر من مديحهم لعهد المتوكل قائداه عبد الله بن دينار وابنه أحمد ، وإبراهيم ابن الحسن بن سهل وله فيه نحو عشر قصائد ، وله فى الفتح بن خاقان تسع

---

(١) الديوان ٢ / ٩٤٣ .

وعشرون قصيدة ، ومن عمال المتوكل الذين مدحهم دُلَيل بن يعقوب النصرانى [١] . وتحوَّل إزاء أعمال المتوكل وكل ما حدث فى عصره إلى ما يشبه آلة راصدة ، فهو يسجل لسنة ٢٣٥ عقده ولاية العهد لأبنائه الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد قائلا [٢] :

قُدَّامهم نورُ النبيِّ وخَلْفهم ... هَدْىُ الإمام القائم المحمود

ولا يترك نصراً على ثائر إلا ويدوّنه ، وكان بطارقة أرمينية خلعوا الطاعة وفتكوا لسنة ٢٣٧ بيوسف بن محمد بن يوسف الثغرى والى إقليمهم ، فوجه إليهم المتوكل جيشاً سحقهم سحقاً وألقوا عن يد وهم صاغرون ، ونوَّه البحترى بهذا الانتصار طويلا . وكانت قد حدثت فى أواخر العقد الرابع من القرن أو أوائل الخامس حروب دامية بين قبائل ربيعة : تغلب وشيبان وغيرهما ، واستطاع الفتح بن خاقان أن يَحْقِنَ الدماء بينها وأن يردَّها إلى الطاعة ، ومن الغريب أن لا تُعْنَى كتب التاريخ بهذا الحدث العناية المنتظرة ، بينما نرى البحترى يسجلها ، وقد بلغ به الأسى أقصاه إذ يرى هذه القبائل المنحدرة من أب وأصل واحد تفقد ما ينبغى أن يكون بينها من البِرِّ والعطف ، فإذا هى تفزع إلى السيف وإلى القوة والقهر وسفك الدماء ، يقول [٣] :

وفُرْسانُ هيجاءٍ تجيشُ صدورُها ... بأَحْقَادها حتى تَضيق دُرُوعُها

تقتِّل من وِتْرٍ أعزَّ نفوسها ... عليها بأَيد ما تكادُ تطيعُها

إذا احتربتْ يوماً ففاضَتْ دماؤُها ... تذكَّرتِ القُرْبَى ففاضَتْ دموعُها

شواجرُ أرماحٍ تقطِّع بَيْنهم ... شواجرَ أَرْحامٍ مَلُومٍ قَطوعُها [٤]

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تطاوعه ، والدماء تفيض والدموع تسيل والرماح تقطع علائق الأرحام . وأعاد المتوكل ووزيره الفتح الأمر إلى نصابه من الأمن والسلم ، فأُغمدت السيوف وقرَّت القلوب الخافقة ونامت العيون المسهَّدة . ويثب أهل حمص بعاملهم [٥] لسنة ٢٤٠ ويعودون إلى الوثوب والثورة فى سنة ٢٤١ وينكل

---

(١) الديوان ٣/١٦٨٩ .
(٢) الديوان ٢/٧٠١ .
(٣) الديون ٢/١٢٩٩ .
(٤) الشواجر : المتشابكة المتداخلة .
(٥) تاريخ الطبرى ٩/١٩٧ وما بعدها .

بهم المتوكل وسرعان ما يعفو عنهم ، ويسجل البحترى الحادث منوّهًا بعفوه قائلا[١] :

تداركتَ بالإحسان حمصَ وأهلَها وقد قارفوا فعل الإساءة والخُرْقِ[٢]

وترسل تذورة إمبراطورة القسطنطينية إلى المتوكل لسنة ٢٤١ وفداً يطلب الفداء بين أسرى الروم والعرب ، ويستقبل الخليفة الوفد فى حفل كبير يصفه البحترى ، ويطيل فى وصف السماط الذى مُدَّ فيه وما علا وجوههم وسيماهم من ذهول وحيرة[٣] . وكان المتوكل قد فكّر لسنة ٢٤٣ فى أن يجعل دمشق حاضرة الخلافة حتى يبتعد عن سامراء ومَنْ بها من قواد الأتراك الطغاة ، ورحل إليها فى سنة ٢٤٣ وتنبّهوا لمقصده فعملوا على العودة به إلى سامراء واضطرّ أن ينزل على إرادتهم ، ويذكر البحترى خروجه إلى دمشق وقدومه منها فى غير قصيدة[٤] . ويأخذ منذ سنة ٢٤٥ فى وصف قصوره التى سميت باسم المتوكلية والتى بلغت — كما مر بنا فى الفصل الثانى — نحو العشرين ، وكان من أهمها البرج الذى عرضنا له هناك ، ويتوقف البحترى مراراً فى مدائحه ليصف تلك القصور من مثل القصر المعروف بالجعفرى والصبيح والمليح وشبداز[٥] ، وما يزال ينوه بها مباهيًا الأمم والشعوب . وفى قصر الجعفرى لقى المتوكل ووزيره الفتح مصرعهما لسنة ٢٤٧ تحت بصر البحترى وسمعه ، وهاله ما رأى ، مما جعله يرثى المتوكل برائيته زاعمًا أنه دافع عنه بيديه ، ويسجل على ابنه المنتصر — كما مرّ بنا فى الفصل الماضى — اشتراكه فى المؤامرة الباغية والفتك به ، قائلا[٦] :

أكان ولىُّ العهد أضمر غَدْرَةً فمن عجبٍ أنْ وُلِّىَ العهد غادرُهْ

وحرىٌّ بنا أن نذكر أن البحترى لم يتورط مثل ابن الجهم فى هجاء المعتزلة إرضاء للمتوكل ولا فى هجاء العلويين ولا فى هجاء النصارى . وأظلمت الدنيا فى عينيه بعد مقتل المتوكل وصاحبه الفتح ، فخرج إلى المدائن يتعزى ، وهناك نظم

---

(١) الديوان ٣ /١٥٤٦ .
(٢) قارفوا : ارتكبوا . الخرق : الحمق .
(٣) الديوان ٣ /١٦٠٢ .
(٤) الديوان ٢/٧٠٧ ، ٧٠٩ ، ٩٩١ ، ١٥١٤/٣ .
(٥) انظر الديوان ٢/١٠٤١ ، ٢٠٠٤/٣.
(٦) الديوان ٢ /١٠٤٨ .

سينيته مودعًا فيها حزنه وأساه ، وعاد إلى سامراء وتركها إلى منبج وأهله . ودفعه الطمع إلى أن يعود إلى المنتصر سريعًا وأن يقف بباب وزيره أحمد بن الخصيب متوسلا إليه بكاتبه الحسن بن مخلد حتى يقرِّبه منه ويسترضيه له ، ويجيبه إلى أمنيته ، فيعفو عنه المنتصر ، ويستمع إلى قصيدته فيه ، وكان قد رفع المحنة التى أنزلها أبوه بالعلويين ودفع الأذى عنهم والتعرض لشيعتهم ، فأشار إلى ذلك البحترى منشداً[١] :

وآلُ أبى طالبٍ بعد مـا ... أُذيع بسِرْبهم فابْذَعَـرْ
ونالتْ أدانيَهم جفـوةٌ ... تكاد السماءُ لها تَنْفَطِـرْ
وصَلْتَ شوابكَ أرحامهم ... وقد أوشك الحَبْلُ أن يَنْبَتِر

ويتوفَّى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته ويخلفه المستعين فيستبقى ابن الخصيب فى الوزارة ، وسرعان ما يغضب عليه قواد الترك فتُستَصْفَى أمواله ويُنْفَى إلى جزيرة إقريطش (كريت) وحينئذ نجد البحترى يتنكَّر له ، ويبالغ فى تنكره إرضاء للمستعين وقواده ، فيؤلبهم عليه ، ويحثهم — كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى — على قتله قائلا[٢] :

لابن الخصيب الوَيْلُ كيف انبرى ... بإفْكِهِ المُرْدِى وإبطـالهِ

وهو جانب فى البحترى لاحظه بعض معاصريه — كما مرَّ فى غير هذا الموضع — إذ تحدثوا عن كفره للإحسان وعدم وفائه ، حين يقلب الدهر مجنَّه لبعض ممدوحيه أو حين يسبق إليهم الموت ، فإنه بدلا من أن يثير ذلك فى نفسه ضروبًا من الشفقة والرحمة ، يسارع إلى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء ما فى أيديهم من المال والنفع ، ويضرب القدماء لذلك مثلا موقفه من الخليفة المستعين إذ كان يمدحه ، وينال جوائزه حتى إذا خلعه قواد الترك وتولى المعتز الذى يرتجى نفعه أسرع إليه بقصيدة يمدحه فيها ويهجو المستعين هجاء مقذعًا بمثل قوله[٣] :

---

(١) الديوان ٢ / ٨٥٠ . ابذعر : تفرق .
(٢) الديوان ٣ /١٦٣٧ .
(٣) الديوان ١ /٢١٥ .

بكى المِنْبَرُ الشرقيُّ إذ خارَ فوقــه على الناس ثَوْرٌ قد تدلّتْ غَباغِبُهْ[١]

فكيف رأيت الحقَّ قَرَّ قراره وكيف رأيت الظلم آلتْ عواقبه

وكان المعتز من أقرب الخلفاء إلى نفسه ، فأكثر من مديحه ووصف قصوره وتسجيل الأحداث لزمنه ، ومدح معه ابنه عبد الله وتوثقت بينهما الصداقة ، ومما سجله من الأحداث لعهده وعهد المستعين قتل القائد التركى أتامش وكاتبه شجاع[٢] لسنة ٢٤٩ وقتل بُغا الشرابى[٣] قاتل المتوكل لسنة ٢٥٤ ونراه يمدح القائد التركى وصيفاً[٤] الكبير وابنه صالحاً[٥] ويكرر حينئذ تشوقه إلى وطنه ، ويستأذن مراراً فى الإلمام به . ويُكثر من مديح الشاه ابن ميكال قائد المستعين ووزيره أبى صالح محمد بن يزداد وابنه عبيد الله وأخيه القاسم . ويَضْطر قواد الترك المعتزَّ إلى خلع نفسه فى سنة ٢٥٥ ويتولى المهتدى بعده الخلافة لنحو عام واحد ، ويغدو إليه ويروح بقصائده مصوراً تقاه وزهده وانصرافه عن الملاهى ومتاع الحياة الزائل ونشره للعدل فى ربوع دولته وإذلال جيوشه للروم ونزولهم على إرادته صاغرين . وسرعان ما ثار عليه الأتراك وخلعوه وولوا بعده المعتمد ، وهو آخر الخلفاء الذين مدحهم البحترى ، وكان الخليفة الحقيقى لعهده أخاه الموفق ، وكان حازماً شجاعاً واسع التدبير ، وهو الذى قضى على ثورة الزنج وهزم يعقوب الصفار الثائر بإيران هزيمة ساحقة . ويصور البحترى فى مديحه للمعتمد بأس جيوشه وانتصاراتها الحربية ، ويصف القصر الذى احتفل ببنائه وسماه المعشوق ونوه به ، وله قصيدة رائعة يهنئ فيها الموفق بقمعه لثورة الزنج ، وفيها يخاطبه بقوله[٦] :

أخذتَ بوِتْرِ الدين مَثْنَى وظُفِّرَتْ يداك فلم يُفْلِتْ عدوٌّ تطالِبُه

ولم يترك حينئذ وزيراً ولا كاتباً كبيراً إلا ويمدحه ويأخذ جوائزه ، وكان المعتمد استوزر عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذى وزر قديماً لأبيه المتوكل ، فلازمه البحترى ، وفكَّر فى أن يرتجع منه الضياع الكثيرة التى كان المتوكل أقطعها إياه ؛ فأكثر الشاعر من التوسل إليه ، حتى يتركها له ، وقصيدته[٧] :

(١) خار : صاح . الغباغب : ماتغضن من الجلد فى منبت العثنون أو اللحية حول الذقن .
(٢) الديوان ١ /٥٢٤ .
(٣) الديوان ٣ /٢٠١٩ .
(٤) الديوان ٣ /١٤٠٣ .
(٥) الديوان ٣ / ٢١٧٤ .
(٦) الديوان ١ /٢٢٤ .
(٧) الديوان ١ /٤٩٣ .

أمرتجَعٌ منى حباءُ خلائفٍ توليتُ تسييرَ المديحِ لهم وحدى

تصور جزعه المفرط ، ويتوفّى عبيد الله سنة ٢٦٣ ويخلفه الحسن بن مخلد ، فيمدحه بقصائد مختلفة شاكيًا ضارعًا ، فيجعل أمره إلى كاتبه السِّيبى ، ولا يسارع إلى استرضائه ، فيشكوه إلى ابن مخلد بحائيته[١] :

لك الخلائقُ فينا السهلةُ السُّمُحُ والنَّيْل يَسْلُسُ للرَّاجى ويَنْسَرِحُ

ولا يكاد يسمعها الحسن حتى يبلغ بالبحترى ما يريد ، ويزيل المطالبة عنه[١] . ويترك الحسن الوزارة سريعًا ويتولاها سليمان بن وهب الذى استوزره المهتدى من قبل ، ويقدم إليه البحترى مدائحه ، ويعصف به الموفق فى سنة ٢٦٥ فيحبسه ويصادر أمواله . ويخلفه على الوزارة أحمد بن صالح بن شيرزاد لمدة شهر واحد ، وللبحترى فيه مدائح مختلفة ، ويلى الوزارة بعده أبو الصقر إسماعيل بن بلبل بينما يلى الكتابة للموفق صاعد بن مخلد ، ويُكثر البحترى من مديح ابن بلبل ، ويهجو له فى بعض مديحه ابن شيرزاد الذى طالما مدحه ، ويمدح كاتبه جرادة على حين يذم كاتباً آخر كان نصرانيًا يسمى إسرائيل ، ويلحّ على ابن بلبل فى قصائد كثيرة أن يأذن له بالرحيل إلى موطنه بمثل قوله[٢] :

وأعتقتَ الرِّقاب فمُرْ بِعتقى إلى بلدى وأنت به جديرُ

وأكثر حينئذ من مديح صاعد بن مخلد كاتب الموفق ، وكان من وجوه النصارى ، وحين استكتبه الموفق أعلن إسلامه وله فيه وفى أخيه عبدون الراهب وابنه أبى عيسى العلاء مدائح كثيرة . وكان أبو عيسى مثقفًا ثقافة واسعة بعلم الفلك ، مما جعل البحترى يُكثر له فى إحدى مدائحه من ذكر النجوم[٣] . ومن كبار الكتّاب الذين مدحهم حينئذ أبو العباس أحمد بن ثوابة صاحب ديوان الرسائل . وفى أثناء ذلك كان يمدح كثيرين من العمال والولاة وأصحاب الخراج والكتّاب والقواد مثل وصيف الصغير وأذكوتكين والهيثم بن عبد الله التغلبى والى الموصل وأحمد بن محمد بن بسطام والى الشام وسيما الطويل والى حلب والعواصم ورافع بن هرثمة والى الرى

(١) الديوان ١ /٤٣٨ وأخبار البحترى ص ١١٠ .
(٢) الديوان ٢ /٩١٦ .
(٣) الديوان ٢ /١٢٦٨ .

وكتّاب الجبل وأنفذ إليهم ذات مرة غلامه نصراً ليطالبهم برسومه[١] . وممن كان يمدحهم كثيراً أبو جعفر أحمد بن محمد الطائى والى الكوفة وآل نوبخت . وكان كثير الإلمام ببغداد ،وعُنى بمديح كثيرين من آل طاهر حكّامها كما مرّ بنا ، كما مدح بعض أعيانها وعلمائها مثل عبد الله بن الحسين بن سعد القطربّلى والمبرّد النحوى ، ومدح عبيد الله بن خرداذبة الجغرافى صاحب البريد بناحية الجبل . ويبدو أن أصحاب الخراج عادوا يتعقبون البحترى ويطالبونه بخراج إقطاعاته الكثيرة ، مما جعله يسأل ابن بلبل المعونة فى خراجه ، كما يسأل المعتمد نفسه قائلا[٢] :

أَخْشَى الخراجَ وقد دعوتُ لعُظْمه ملكَ الملوك ورافـد الرُّفَّاد

ومضى عمال الخراج يُثْقلون عليه ، وهو كل يوم يَمْثُلُ بين أيديهم شاكيًا ملحًّا فى أن يحطّوا عن كاهله ما يطلبونه منه، ولا يكاد يظفر بما يبتغى منهم، فيفكر فى مبارحة العراق ، ويمدح ابن طولون صاحب مصر والشام حينئذ ويصرّح فى مديحه له بما فى نفسه قائلا[٣] :

فأصبحتُ فى بغدادَ لا الظلُّ واسعٌ ولا العَيْشُ غَضٌّ فى غَضارته رطْبُ
أ أمدح عُمَّال الطَّساسيجِ راغباً إليهم ولى بالشام مُسْتَمْتَعٌ رَغْبُ[٤]

وكل شىء يؤكد أن البحترى كان قد أثرى ثراء فاحشًا منذ عصر المتوكل ، فإنه نثر عليه أموالا جمة وإقطاعات عديدة ، بالإضافة إلى ما أغدق عليه الفتح بن خاقان وغيره من رجال الدواوين ، وخاصة آل المدبر وفى مقدمتهم إبراهيم ، وكان هو وأخوه أحمد من كبار الموظفين فى دواوين الخراج والضياع ، ويقول الصولى إنه كان يوجب على إبراهيم فى كل سنة أن يُسْقط أكثر خراجه أو يؤديه عنه ، وإنه استماحه مرة لشراء ضيعة فلامه لكثرة ضياعه ، وقال له : تكفيك ضياعك فقد

---

(١) الديوان ٣ /١٨٥٦ .
(٢) الديوان ٢ /٧٣٤ .
(٣) الديوان ١ /١٢٣ .
(٤) الطساسيج : الإقطاعات والضياع ، و يقال إن سواد العراق كان مقسماً إلى ستين طسوجا . رغب : متسع .

كثرت وعظمت ، غير أن البحترى تمادى فى إلحاحه عليه ، وأنشده قصيدته التى يقول فيها[١] :

وما زالتِ العِيسُ المراسيلُ تَنْبَرِى ... فيُقْضَى لدى آل المدبِّر حَاجُها[٢]
ولمْ لا أغالى بالضِّياع وقد دَنَا ... علىَّ مَدَاها واستقام اعوجاجُها
إذا كان لى تربِيعُها واغْتــلالُها ... وكان عليك عُشْرُها وخراجها[٣]

فأمر له بالمال الذى يشترى تلك الضيعة به[٤] . وكلما تقدمنا مع البحترى فى الزمن بعد المتوكل زادت ضياعه ، وقد وصلته من المعتز ضياع وأموال كثيرة ، وهو مع ذلك لا يزال يلحُّ عليه بالطلب حتى ليستهديه خاتم ياقوت ويُهْديه إليه[٥] . وكان المعتز قد أهدى إلى ابنه عبد الله إقطاعًا جاوره البحترى فى بعضه، وكأنه لم يكتف بما صار فى يده ، فقد مضى يسأل عبد الله أن يهب له من إقطاعه الضيعة التى تجاوره ، وتشفَّع إليه بأبيه وصنع فى ذلك أشعاراً ، منها قوله للمعتز :

يا واحدَ الخلفاء غيرَ مدافَعٍ ... كرماً وأحسنَهم نَدًى وصَنيعا

فاتجه إلى ابنه عبد الله قائلا له : اقْضِ حاجة البحترى ، فوهبها له[٦] . وتظل عنده شهوة تملك الضياع والإقطاعات ؛ إذ نراه يطلب من صاعد بن مخلد إقطاعًا[٧] ومن ابنه أبى صالح ضيعة[٨] ومن سليمان بن عبد الله بن طاهر حين أصبح حاكماً لبغداد إقطاعاً[٩] . ويكثر عنده أن يسأل ممدوحيه أفراساً[١٠] وسيوفاً[١١]

---

(١) الديوان ١ / ٤٢٧ .
(٢) العيس : الإبل . المراسيل : النوق السهلة السير .
(٣) التربيع : الإنماء . والعشر : عشر الثمار وهو الخراج المفروض .
(٤) أخبار البحترى للصولى ص ١١٩ .
(٥) انظر التحف والهدايا للخالديين نشر سامى الدهان ص ٧٣ ، وزهر الآداب ٣/٩٧ ، وأخبار البحترى ص ١٠٨ وقد عدد فى القصيدة عطايا المعتز له من الدنانير والخلع وكيف أنه أمر بأن يزور بلده على خيل البريد الرسمى . انظر الديوان ٣ /١٥٣٦ .
(٦) أخبار البحترى ص ١٠٥ والديوان ٢ /١٣٠٩ .
(٧) الديوان ٣ /١٥٢٤ .
(٨) الديوان ٢ /١٠٠٨ .
(٩) الديوان ٣ /٢٠٤١ .
(١٠) انظر الديوان ١ / ٣٩٩ ، ٣/ ١٤٨٥ ، ١٧٤٤ ، ١٩٨٩ ، ٢٠٣٠ .
(١١) الديوان ٣ /١٧٤١ .

وشرابًا[١] وثيابًا[٢] وغلمانًا[٣] . وبذلك نستطيع أن نوفق بين شُحِّه وما يقال من أنه كان يمشي فى موكب من غلمانه[٤] ، فقد كانوا جميعًا هبات من ممدوحيه ، وخَصَّ نسيمًا من بينهم بغزل كثير ، وكان قد أهداه إليه محمد[٥] بن عيسى القمى كاتب أبى سعيد الثغرى ، وفى الأغانى « أن البحترى جعله بابًا من أبواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويتعمد أن يصيّره إلى ملك بعض أهل المروءات ومن يَتَّفِقُ عنده الأدب ، فإذا حصل فى ملكه شبَّب به وتشوَّقه ومدح مولاه حتى يهبه له ، ولم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكُفِى الناس أمره »[٦] . وقد يكون أبو الفرج مبالغًا فى ذلك ، فإنه لم يثبت أن أحداً اشتراه سوى إبراهيم بن الحسن بن سهل ، وقد مدحه بأشعار كثيرة يصور فيها ندمه ، فرده عليه[٧] ، ولعل فى ذلك كله ما يصور مدى ثراء البحترى من جانب وشدة طمعه من جانب آخر ، وقد ظلَّ يُلْحِفُ فى سؤال العطاء والضياع فكان طبيعيًّا أن يلفت إليه أنظار معاصريه ، وحتى الخراج أو عشر الثمار كان ما ينى يحتال فى التخلص منه بالتضرع إلى وزير أن يدفعه عنه أو إلى كاتب كبير مثل إبراهيم بن المدبر . ويفكر فى الإفادة من أحمد بن طولون — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — فيمدحه لسنة ٢٦٩ ويمدح بعض كتابه وقواده مثل عفاص ويونس بن بُغَا وجعفر بن عبد الغفار ومحمد بن العباس الكلابى . ويُتَوَفَّى ويخلفه ابنه أبو الجيش خمارويه لسنة ٢٧٠ وترى البحترى فى بعض قصيده[٨] يجمع بين مديحه ومديح أبى الصقر إسماعيل بن بلبل وزير المعتمد . وفى سنة ٢٧٢ يغضب الموفق على صاعد كاتبه ويقبض عليه وعلى ابنيه أبى عيسى العلاء وأبى صالح وعلى أخيه عبدون ويصادر جميع أموالهم وأسبابهم[٩] ، ويتوفَّى أبو عيسى العلاء فى الحبس بعد ثلاثة عشر يومًا ويكتئب البحترى ، ويرثيه بقصيدة يقول فيها[١٠] :

---

(١) الديوان ١ /٤٠٧ ، ٤٢٧ ، ٤٩١ ، ٥٥٩ ، والأغانى ١٨ /١٧١ .

(٢) الديوان ٢ /٨٣٧ ، ٨٩٢ وأخبار البحترى ص ١١٥ .

(٣) انظر مثلا ٢ /٩٨٦ ، ١٠٦٧ ، ١٤٨٥/٣ .

(٤) راجع الأغانى ١٨ / ١٧٠ وقابل بالعمدة لابن رشيق ٢ /١٥٠ .

(٥) الديوان ١/ ٥٢٧ .

(٦) الأغانى ١٨ /١٧١ .

(٧) أخبار البحترى ص ١٢٧ وما بعدها .

(٨) الديوان ٢ /٩٠٩ .

(٩) تاريخ الطبرى ١٠ /١٠ .

(١٠) الديوان ٣ /١٥٥٣ .

ولم أرَ كالدنيا حَليلةَ وامق محبٍّ متى تحسُنْ بعينيه تَطْلُقِ
تراها عِياناً وهْى صنعةُ واحدٍ فتحسبها صُنْعَىْ لطيفٍ وأخرقِ

وحين سمع بعض خصومه البيتين شنَّعوا عليه بأنه ثَنوىّ يؤمن بإلهى النور والظلمة ، وشاع ذلك فى عامة بغداد وكانت غالبة عليها حينئذ ، فخافهم البحترى على نفسه وخرج إلى منبج . ويبدو أن إقامته بها لم تطل وأنه عاد منها إلى سامراء وبغداد بعد حين إذ يحكى الصولى أن أول ما رأى البحترى سنة ٢٧٦ بمجلس المبرد فى مسجده ببغداد . ونظن ظنًّا أن رحلاته إلى العراق لم تنقطع إلا بعد قبض الموفق على صديقه إسماعيل بن بلبل سنة ٢٧٧ وكأنما كانت هذه الحادثة سببًا فى أن يصمم على مبارحة العراق إلى الأبد . وربما ولَّى وجهه حينئذ نحو مصر وصاحبها خمارويه(١) ، ويبدو أنه كان يلقاه فى رحلاته بالشام ، ثم مدَّها إلى مصر للقائه . ويؤكد نزوله بها كثرة مدائحه لكاتب خمارويه إسحق بن نصير . غير أنه كانت علته كَبْرة فلم يقم بمصر طويلا وعاد إلى منبج ، وظل بها سنواته الأخيرة حتى لبَّى نداء ربه لعام ٢٨٤ .

وكان البحترى يأخذ بحظوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية فى عصره ، وليس معنى ذلك أنه تخصص فى أحد فروعها ، ولكنه كان يلم بها ، إذ كانت حلقاتها مفتوحة للصادر والوارد فى جميع أنحاء العالم العربى حينئذ ، ويرمز إلى ذلك فى شعره أننا نراه فيه يعرض لبعض اصطلاحات علم الحديث ، إذ يقول فى مديحه لإبراهيم بن الحسن بن سهل(٢) :

خُلُقٌ أتيتَ بفضله وسَنائه طبعاً فجاءَ كأنه مصنوعُ
وحديثُ مجدٍ عنك أفرط حُسْنُهُ حتى ظننَّا أنه موضــوع

وفى ذلك ما يؤكد صلته بالدراسات الإسلامية لعصره من حديث نبوى وتفسير وفقه ، وبالمثل كان على صلة بالدراسات العربية من تاريخية ولغوية ونحوية ، وهذا طبيعى لأنه أعد نفسه ليكون شاعراً مرموقًا ، فكان لا بد له أن يتزوَّد من اللغة ومن

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ /٩٧ .

(٢) الديوان ٢ /١٣١٦ .

النحو ومن التاريخ العربى الإسلامى ، ونراه فى بعض شعره يعرض لعالم لغوى فى عصره هو الفضل بن محمد اليزيدى ، رآه يزرى على جميل وكثيِّر ، فيقول إنه لا علم له بالشعر ، وكل علمه إنما هو التعمق فى الفاعل والمفعول[1] .

وكان لا يبارَى فى ثقافته بالشعر ، مما جعله يضع فيه ديوان حماسة مشاكلةً ومشابهةً لأستاذه أبى تمام فى حماسته المشهورة ، ويقول ابن النديم إن له كتابًا ثانيًا فى معانى الشعر ، غير أن هذا الكتاب سقط من يد الزمن . والكتاب الأول كاف فى تصور إكبابه على الشعر القديم إكبابًا منقطع النظير . وبالمثل كان يكبّ على دواوين الشعراء المحدثين ، مما أتاح له ثقافة شعرية واسعة . ولكن هل نستطيع بذلك كله أن نقول إن البحترى كان مثقفًا بالثقافة الحديثة لعصره وما يتصل بها من علوم الأوائل ؟ حقًا له قصيدة ، كما أسلفنا ، أكثر فيها من ذكر النجوم ، ولكن هذا لا يعنى أنه كان ملمًا بعلم الفلك والنجوم لعصره ، فقد كان منصرفًا عن هذا العلم وغيره من علوم الأوائل . وكان إذا ألم بها يلمّ من الظاهر إن صح هذا التعبير ، فهو لا يتعمقها أو هو بعبارة أدق لا يستطيع أن يتعمقها إذ كانت نشأته نشأة بدوية كما لاحظ القدماء ، وإن كان قد تحضَّر فيما بعد ، ولكنه ظل بعيداً عن الفقه بالثقافة الحديثة ، وخاصة الثقافة الفلسفية والمنطقية .

وكانت قد أخذت تتكوَّن فى النقد والبلاغة — كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع — ثلاث بيئات : بيئة محافظة مسرفة فى المحافظة ترى أن الشعر ينبغى ألا يقاس إلا بالمقاييس العربية الخالصة ، وهى بيئة اللغويين ، وبيئة مجددة مسرفة فى التجديد ترى أن يقاس الشعر بمقاييس البلاغة اليونانية ، وهى بيئة المتفلسفة ، ممن كانوا يترجمون عن اليونان أو يقرءون ما ترجم عنهم ، وبيئة معتدلة ، فهى لا تحافظ محافظة اللغويين ولا تجدد تجديد المتفلسفة ، بل تقف موقفًا وسطًا ، فهى تقرأ ما يترجم وهى تنظر فيما أُثر عن العرب من ملاحظات بلاغية ، ثم تحاول أن تنفذ من ذلك إلى مقاييس للبلاغة العربية تَزِنُها موازين دقيقة ، وهى بيئة المتكلمين ، على نحو ما نعرف عن الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، وانحاز الشعراء غالبًا إلى البيئتين المحافظة والمعتدلة ، وقلما انحاز أحد منهم إلى البيئة الثالثة

---

(١) الديوان ٣ /١٨١٧ وما بعدها .

لأنها كانت تجافى الذوق العربى . غير أن هذه البيئة أخذت تشنُّ حملات شعواء على بيئة المحافظين وخاصة على ممثلها البحترى الذى لم يكن يتقن الثقافة الفلسفية ، ونرى بعض من يمثلون البيئة المعتدلة ينضمون إلى هذه الحملة بعامل المنافسة بينهم وبين البحترى وفى مقدمتهم ابن الرومى . وكانت قد ساءت العلاقة بين البحترى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد ، ونظن ذلك حدث فى بعض فترات عَزْله عن وظيفته ، وسارع البحترى فلمَّح إليه فى بعض شعره بما يشبه الذم ، وردَّ عليه عبيد الله يمدُّه صديقه ابن الرومى بأشعار ملتهبة ، ويبدو أنهما ندَّدا بضعف ثقافة البحترى وأنه لا يعرف فلسفة ولا منطقا ، مما جعله يهجو عبيد الله ببائية يقول فيها[1] :

كلَّفتمونا حـــدودَ مَنْطقكم والشعرُ يغنى عن صدقه كَذِبُهْ
ولم يكن ذو القُرُوحِ يَلْهَجُ بالـ مَنْطق ما نَوْعُهُ وما سَبَبُهْ
والشِّعْرُ لَمْحٌ تكفى إشارتُه وليس بالهَذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ

وحقًّا لم يكن امرؤ القيس الملقَّب بذى القُروح يعرف فلسفة ولا منطقًا لا لأنه صَدَّ عن ذلك ، ولكن لأن عصره كله لم يكن يعرفهما ، ولو أنه تأخر به الزمن إلى عصر البحترى لعكف على الفلسفة والمنطق كما عكف ابن الرومى وأضرابه وغذَّى بهما شاعريته غذاء رفيعًا . وهو يلمِّح فى الشطر الأخير إلى ابن الرومى وما اشتهر به من مطولات شعره .

وقد ساعد الذوق المحافظ الذى ساد فى العصر — كما أشرنا إلى ذلك مراراً — إلى أن ترجح كفَّة البحترى المحافظ كفَّة ابن الرومى المجدد، وأن يقف فى صَفِّه لا علماء اللغة وحدهم من أمثال المبرد بل كثرة كثيرة من الشعراء ، على حين كان ابن الرومى يعيش لعصره فيما يشبه عُزْلة من معاصريه مع تفوقه على زميله تفوقًا واضحًا بملكاته الشعرية الخصبة ، ولكنه لم يكن يحتفظ للشعر بصياغته الموروثة وتقاليدها على نحو ما يحتفظ البحترى ، فوقع بعيداً عن ذوق الكثرة الغالبة من الشعراء والنقاد .

---

(١) الديوان ١/٢٠٩ .

وليس معنى ذلك أن البحترى انفصل تماماً عن روح العصر ، فقد كان يلائم بين شعره وبين تلك الروح عن طريق ثقافة واسعة بشعر أستاذه أبى تمام وشعر من سبقوه ... أمثال مسلم وأبى نواس وبشار ، المرة تلو المرة ، والمرات تلو المرات ، حتى أصبح ذلك جزءاً لا يتجزأ من جوهر شعره ، ولذلك نعته معاصروه طويلا بأنه يغير على أشعار من سبقوه فيسلبها لنفسه ، وفى ذلك يقول ابن الرومى لأبى عيسى العلاء بن صاعد حين نشر الأمن فى ربوع بغداد[1] :

أيسرق البحترىُّ الناسَ شعرهمُ جَهْرًا وأنت نكَال اللِّصِّ ذى الرِّيَبِ

وأهم ديوان ألحَّ على تمثله ديوان أستاذه أبى تمام ، ولاحظ ذلك كله القدماء فأفردوا سرقاته بالبحث ، وكان أول من عُنى بذلك عنده معاصره أحمد بن أبى طاهر ؛ إذ استخرج له ستمائة بيت ردها إلى أصولها عند الشعراء وخاصة عند أبى تمام ، وقد بلغ ما سلبه منه فى رأى ابن أبى طاهر مائة بيت . وتلاه بشر بن تميم بمصنف ذكر فيه سرقاته من أبى تمام ، وعليه اعتمد الآمدى فى الفصل الذى عقده لهذا الجانب من سرقات البحترى . وفى رأينا أنه استطاع بذلك أن يتلافى نقص ثقافته الحديثة ، فقد خالط الشعراء المحدثين وخاصة أبا تمام مخالطة نادرة ، بحيث تمثل المعانى والأخيلة الحديثة ، بل قل بحيث استخلصها لنفسه ، وأخذ يَصدر عنها كما يصدر الضوء عن الشمس والشذى عن الزهرة . وحقاً أنه يوجد بون بعيد بين عرض هذه الأخيلة والمعانى عنده وعند أبى تمام ، فقد كان أبو تمام يغمس أفكاره وأشعاره فى ليقة المنطق ، فإذا القصيدة عنده توشك أن تتحقق فيها الوحدة العضوية ، فالمعانى والصور يتولد بعضها من بعض ولا خنادق ولا ممرات بين الأبيات ، على حين تكثر هذه الممرات والخنادق عند البحترى ، ولاحظ ذلك القدماء فقالوا إنه لا يحسن الخروج من موضوع إلى موضوع فى الشعر[2] ، لسبب بسيط وهو أنه لم يكن يخضع فى شعره للمنطق على نحو ما صرَّح بذلك آنفاً . وظاهرة ثانية هى أنه جارى أستاذه فى

---

(١) ديوان ابن الرومى (نشر كامل كيلانى) ص ٣٥ .

(٢) العمدة لابن رشيق ١ / ١٥٩ .

الاحتفال بألوان البديع واستظهارها فى أشعاره ، ولكن حين نقرن أى لون عنده إلى أصله عند أبى تمام سنجد مفارق واسعة ، فأبو تمام مثلا يجنح إلى استخدام نوافر الأضداد فى أشعاره كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحترى يستطيع أن يتعمق هذا التعمق ولذلك نراه يكتفى بالطباق بحيث إذا ذُكر الوصل مثلا ذُكر معه الهجر ، وإذا ذكر الذل ذكر معه الكبر ، وإذا ذكرت السهولة ذكرت معها الوعورة ، وإذا ذكرت الحرية ذكرت معها العبودية . ولون آخر يتعمقه أبو تمام هو الاستعارة على نحو ما مر بنا أيضًا فى حديثنا عن العصر العباسى الأول ، ولم يكن البحترى يتعمق هذا اللون تعمقًا من شأنه أن يبعده عن الذوق القديم ، ولذلك كله قال النقاد إنه يحافظ على عمود الشعر العربى[1] ، يريدون محافظته على أصوله الموروثة ، ومن تتمة ذلك عنده أنه لم يكن يكثر من ألوان البديع إكثار أبى تمام ، ولا كان يستطيع أن يتغلغل فى دقائق الفكر والأخيلة على نحو ما كان يتغلغل أبو تمام بحكم ثقافته الفلسفية ومواردها التى لا تنضب فى أشعاره ، ولذلك كان يشيع فى أشعاره الغموض ، مما جعل القدماء يختلفون فى فهم كثير من أبياته وتفسيرها وتأويلها ، لكثرة ما توحى به من معان ، وهو اختلاف لا يضيع منك هباء ، بل إنك تجد فى أثنائه ما يشبه أقواس قزح ممتدة فى أشعاره ، وهى أقواس بهيجة ، تزهى بالفكر العميق والخيال الواهم البعيد .

ولكن إذا كان البحترى لم يستطع أن يحقق لنفسه هذا المدى الرائع من الشعر والفن ، بسبب ضعف ثقافته الفلسفية ، فإنه استطاع أن يحقق لنفسه مدى مقابلا لا يقل روعة ، وهو مدى الجمال الصوتى البديع ، بحيث استطاع أن يرتفع باصطفاء الكلمات والملاءمة بينها فى الجرس! بل بين حروفها وحركاتها ملاءمة رفعته إلى مرتبة موسيقية لم يلحقه فيها سابق ولا لاحق ، وكأنما كانت له أذن داخلية مرهفة ، تقيس كل حرف وكل حركة وكل ذبذبة صوتية ، فإذا به ينظم شعراً مصفى مروَّقًا ، شعراً يلذ الألسنة والآذان والأذهان لذة لا تعادلها لذة . وقد وقفنا طويلا عند هذا الجانب فى الفصل الثانى من كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وأوضحنا مدى مشاكلته بين أصوات الألفاظ والقوافى فى بعض القصائد وموضوعاتها كما أوضحنا

---

(١) الموازنة للآمدى (طبعة الجوائب) ص ٢ .

مدى التوافق الصوتى عنده بين الحروف والكلمات والحركات والسكنات ، وكأنما أعطت الموسيقى الشعرية كل مفاتيحها وكل أسرارها للبحترى ، فإذا هو يوقع على قيثارته أروع ألحان عرفتها العربية[١] . وبذلك استطاع أن يتلافى بقوة قصوره الثقافى ، فإذا هو يوضع على قدم المساواة مع أبى تمام ، وإذا النقاد يتقابلون فى صَفَّين : صَفّ يرفع أبا تمام إلى الذروة ، وهم المتفلسفة ومن يعنون بالتعمق فى المعانى والأخيلة ، وصف يرفع البحترى إلى نفس المرتبة ، وهم أصحاب الآذان المرهفة الذين يُكبرون اللذة الصوتية ، وكان ينضم إليهم طوائف من المحافظين واللغويين ، وكان البحترى نفسه إذا سُئل عنه وعن أبى تمام قال : جيده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه ، وهو يريد بجيد أبى تمام معانيه وأخيلته الدقيقة التى لم يكن أحد من أهل زمانه يستطيع أن يحلق فى آفاقها ، أما رديئه فيريد به بعض أبياته التى يضطرب فيها اللفظ لأنه لم يكن يُعْنَى بألفاظه وأصواته عناية البحترى .

والمديح أهم موضوع استنفد شعر البحترى ، فقد عاش ، كما مرَّ بنا ، يمدح الخلفاء العباسيين من المتوكل إلى المعتضد ووزراءهم وولاتهم وقوادهم وكتَّابهم ، وكأنما وقف نفسه على الإشادة بالدولة ورجالاتها ، بحيث يُعَدُّ الشاعر الرسمى لها ، وكان طبيعيًا لذلك أن ينتصر للعباسيين ضد خصومهم العلويين ، وأن يتغنى بذلك فى أشعاره ، حتى يثبت ولاءه لهم وأنه يقف فى صفوفهم مدافعًا عنهم مناضلا بمثل قوله للمتوكل[٢] :

شَرَفاً بنى العباس إن أباكمُ ... عَمُّ النبىِّ وعِيصُه المتفرِّعُ
إن الفضيلة للذى استَسْقَى بهِ ... عُمَرٌ وشُفِّع إذ غَدَا يَسْتَشْفِعُ
وأرى الخلافة وهْى أعظم رتبة ... حَقًّا لكم ووراثةً ما تُنْزَع
أعطاكموها الله عن علمٍ بكم ... واللهُ يُعْطى مَنْ يشاءُ ويَمْنَعُ

فالعباس جد العباسيين وعم الرسول صلى الله عليه وسلم من العِيص ومنبت الشجر الضخم ، يريد أنه من الأصول بينما على بن أبى طالب من الفروع ، ويستدل على

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة – نشر دار المعارف) ص٧٧ وما بعدها .

(٢) الديوان ٢ /١٣١١ .

فضله بأن عمر استسقى به فى عام الرمادة حين أصاب الجزيرة القحط مستشفعاً به لربه ، ولم يَسْتَسْقِ بابن أبى طالب ، ويشير إلى حكم الميراث فى الإسلام وما فرضه من حَجْب العم لابن أخيه ، فالخلافة حق من حقوق العباسيين ، كما تقرر ذلك الشريعة الإسلامية ، وليس لأبناء على وحفدته أى حق فى منازعتهم . ويكرر البحترى فى مديحه للمتوكل وغيره من الخلفاء العباسيين تقواهم ، وعدلهم الذى ينشرونه فى ربوع الدولة ، ومدى رعايتهم للأمة ورفقهم بها ورقتهم لها وكيف يقومون على حمايتها بجنودهم وجموعهم الجرَّارة . وكان ينتهز كل فرصة ليدبج قصائده فيهم ، فمن ذلك قصيدته فى وصف موكب المتوكل فى أثناء خروجه لأداء الصلاة فى عيد الفطر ، وقد صوَّر فى فاتحتها قوة الإسلام حينئذ مجسمة فى جيش ضخم كان يحفّ بالمتوكل وكأنه جبال تتحرك ، فترجف الأرض وتهتز لضخامته وعدده الكثيفة ، ويتحدث عن جلال الموكب وما استدار حول المتوكل من هالات قدسية ومن محبة للشعب وإعظام ، يقول[1] :

افتنَّ فيك الناظرون فإصْبَعٌ ... يُومَى إليك بها وعَيْنٌ تَنْظُـرُ
يجدون رويتك التى فازوا بها ... من أنعم الله التى لا تُكْفَرُ
ذكروا بِطَلْعتك النبىَّ فهلَّلوا ... لما طلعتَ من الصفوف وكبَّروا
حتى انتهيتَ إلى المصلَّى لابساً ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر
فلو أنَّ مشتاقاً تكلف فوق ما ... فى وسعه لسعى إليك المِنْبَر

ولعل أهم وزير استصفاه لنفسه الفتح بن خاقان ، فله ألف ديوانه الحماسة ، وقد عاش نحو خمسة عشر عاماً يمدحه منوهاً بسياسته وحزمه وشجاعته وأناته فى تسديد الأمور ، وعونه للضعيف ورده للمظالم ونشره للعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وبُعْد غَوْره ويقظته وكفايته لحمل أمانة الحكم على خير وجه ممكن ، مع تقواه وتواضعه ومع صيانته للثغور وحَطْمه بجيوشه للثوار والأعداء حطما لا يبقى ولا يذر ، ومع أخلاقه الرفيعة التى تتحلَّى بها نفسه الأبية ، وكان ربما بدر منه ما يجعل الفتح ينصرف عنه . فكان يعتذر له بأشعار رائعة ، سبق أن صورناها فى الفصل الماضى . ومديحه

(١) الديوان ٢ / ١٠٧٢ .

فيه يكتظ بعاطفة حقيقية ، فقد كان يكنّ له ودًّا وحبًّا وإخلاصًا ، وكان ما ينى يتغنّى بمديحه ، ومن طريف قوله فيه مصوراً هيبته[١] :

إذا ما مَشَى بين الصفوف تقاصرتْ ... رءوسُ الرِّجال عن طُوالٍ سَمَيْدَعِ[٢]

وإن سار كُف اللحظُ عن كل منظرٍ ... سواه وغُضَّ الصوت عن كل مَسْمَعَ

فلستَ ترى إلا إفاضةَ شاخصٍ ... إليه بعينٍ أو مشيرٍ بإِصْبَعِ[٣]

ومرَّ بنا أن أول نابه اتصل به وخصه بمديحه محمد بن يوسف الثغرى ممدوح أبى تمام الذى كان فى مقدمة من قمعوا ثورة بابك الخرمى ، كما كان فى مقدمة جيوش المعتصم فى غزوه لعمورية ، وقد ظل ينازل الروم ويمحق جموعهم حتى وفاته سنة ٢٣٦ . وقد سجل البحترى حروبه وانتصاراته القديمة والحديثة جميعًا ، مجسمًا بأس جيوشه ، وكيف كانوا يتهافتون على الوغى كما يتهافت الفراش على النار ، إنهم أبناء موت يطرحون أنفسهم تحت رَحَاه ، فلا تطحنهم وإنما تطحن أعداءهم طحناً ، وله فى تمجيد شجاعة محمد بن يوسف الثغرى أشعار وقصائد كثيرة ، ومن طريف ماله فى تصوير رباطة قلبه وسكون نفسه فى الحرب قوله[٤] :

لقد كان ذاك الجَأْشُ جَأْش مسالمٍ ... على أَن ذاك الزِّىَّ زِىُّ محـاربِ

تسرَّع حتى قال من شهد الوَغَى ... لقاءُ أَعادٍ أَم لقاء حبائبِ

وصاعقة فى كفِّه يَنْكفِى بها ... على أَرْؤُسِ الأَقران خمسُ سحائب

فَجأْشُهُ مطمئنٌّ ونفسه هادئة ، حتى ليظن من يراه أنه فى سِلْم وأمن ودعة مع أن الزى زى محارب باسل ، وإنه ليُقبل على ميادين الحرب إقبال المحب على حمى معشوقته هانئًا مغتبطًا ، وإن السيف فى يده ليشبه أدق الشبه صاعقة تسقط على الأعداء بشواظها من أصابعه الخمس ، وكأنها خمس سحائب ماتنى ترسل عليهم الصواعق المدمرة . والبطل الثانى فى ديوان البحترى هو أحمد بن دينار ، وقد سجَّل بطولته فى معركة بحرية دمَّر فيها بأسطوله الأسطول البيزنطى تدميراً ذريعًا ، ومن عجب أن الطبرى وغيره من مؤرخى العرب لم يدونوا هذه المعركة الخطيرة ،

---

(١) الديوان ٢ /١٢٣٩ .
(٢) السميدع : السيد الكريم الشجاع .
(٣) الإفاضة : الاتجاه بالبصر .
(٤) الديوان ١ /١٧٨ .

ولا أشاروا إليها ، والمظنون أنها كانت لعهد المتوكل ، ولعل فى تسجيل البحترى لها ما يؤكد ما قلناه مراراً من أن شعر المديح عند العرب يُعَدّ فى بعض جوانبه وثائق تاريخية مهمة ، وفيها يقول البحترى مصوراً زحف ابن دينار بمركبه « الميمون » ومن حوله المراكب تغص بجنوده البحريين الذين محقوا الأسطول البيزنطى وجنوده محقًا[١] :

غدوتَ على الميمون صُبْحاً وإنما ... غدا المَرْكَبُ الميمونُ تحت المظفَّرِ
وحولك رَكَّابون للهول عاقروا ... كئوسَ الردَى من دارعين وحُسَّرِ[٢]
صَدَمْتَ بهم صُهْبَ العَثَانين دونهم ... ضرابٌ كإيقاد اللَّظَى المتسعرِ[٣]
يسوقون أسطولا كأنَّ سَفينه ... سحائبُ صَيْفٍ من جَهامٍ ومُمْطِر[٤]
فما رِمْتَ حتى أَجْلَت الحربُ عن طُلًى ... مقطَّعةٍ فيهم وهامٍ مطيَّرِ[٥]

وكل شىء يشهد بأن الشعر كان لا يستصعب على البحترى ، فقد كان يتدفق على لسانه تدفقًا ، ومع ذلك يقال إنه نقل كثيراً من مدائحه ، حتى ليبلغ ذلك عشرين قصيدة ، إلى مدح أناس جدد[٦] . وقد يكون فى ذلك مبالغة ، على أننا نجد فى الديوان رائية مرددة بين أبى الصقر إسماعيل بن بلبل ، والخضر بن أحمد والى الموصل ، واختلفت لذلك رواية بعض أبياتها[٧] . ويدخل فى هذه الظاهرة عند البحترى ما قيل من أنه هجا كثيرين ممن مدحهم ، حتى ليبلغ بهم بعض الرواة أربعين شخصاً[٨] ، وقد عرضنا لذلك فى غير هذا الموضع ، ولا شك فى أن فى العدد مبالغة .

وفى ديوانه أهاج مختلفة ترجع إما إلى حرمانه من جائزة ، وإما إلى كفران صنيعة عند بعض معاصريه ، وإما إلى منافسة بينه وبين الشعراء وخاصة من كان منهم

---

(١) الديوان ٢/ ٩٨٢ .
(٢) الردى : الموت . الدارع : لابس الدرع . الحاسر : عكس الدارع .
(٣) صهب العثانين : شقر اللحى، ويريد بهم الروم .
(٤) السحاب الجهام : الذى لا ماء فيه .
(٥) رام يريم عن المكان: زال عنه وفارقه . الطلى : الأعناق . الهام : الرءوس .
(٦) الموشح ص ٣٣٦ .
(٧) الديوان ٢/ ٨٧٠ وما بعدها .
(٨) الموشح ص ٣٣٦ .

يتعرض لشعره بالذم والنقد اللاذع . ويلاحظ أبو الفرج الأصبهانى فى ترجمته أن بضاعته من هذا الفن قليلة ، ويُرْوَى عن ابنه أبى الغوث أن السبب فى ذلك أن أباه أحرق هجاءه فى الناس خوفًا من مغبة عداوتهم له ولأبنائه ، وكأن هذه الرواية لم تعجب أبا الفرج ، فقد عاد يؤكد أن أكثر هجائه ساقط غث الألفاظ ركيك لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه[١] .

وبالمثل الفخر عند البحترى ضعيف ، هو حقًّا يفخر فى بعض قصائده بآله وعشيرته بحتر وقبيلته طيئ ناعتًا لهم بالكرم والشجاعة والكثرة والحصافة ، ولكنه لا يصدر فى ذلك عن إيمان قوى بالمجد ، وكأنما كانت عصبيته القبلية ضعيفة ، بل لقد كان إحساسه بعروبته أيضًا ضعيفًا ، ومرت بنا فى الفصل السالف قصيدته فى إيوان كسرى وبكاؤه لأمجاد الفرس ، وكأنما لم يكن يستشعر شيئًا من الإحساس العميق بالأمجاد العربية فى مقابل الأمجاد الفارسية ، ولعله من أجل ذلك كان كثيراً ما يسترسل فى إشادته بالأصول الفارسية لبعض ممدوحيه ، على نحو ما يلقانا فى مديحه للحسن بن سهل بمناسبة عيد المهرجان ، وله يتوجه بالخطاب قائلا[٢] :

إن للمِهْرَجان حقًّا على كـ ـل كبيرٍ من فارسٍ وصغيرِ
عيدُ آبائكِ الملوكِ ذوى التيـ ـجانِ أهلِ النُّهَى وأهلِ الخِيرِ[٣]

ويعدّد طائفة من هؤلاء الملوك فى مقدمتهم يَزْدَجرْد ، وكسرى ، وأرْدَشير ، ويصور ما كان لهم من أبهة الملك وما كانوا يغدون ويروحون فيه من السندس والحرير . وحتى العاطفة الإسلامية بدورها نجدها ضعيفة عند البحترى ، إذ امتدح كثيرين من النصارى على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

وذكرنا فى الفصل السالف مرثيته للمتوكل ، وأوضحنا كيف أعلنها ثورة مدوية على قاتليه وولى العهد الذى ناصرهم ، وقد استهلها بوصف قصر الجعفرى الذى قُتل به الخليفة وما حلّ عليه من سواد وكآبة ، حتى غدا كأنه مأتم كبير ،

---

(١) الأغانى (طبعة الساسى) ١٨/١٦٧ .
(٢) الديوان ٢/ ٨٨٦ .
(٣) الخير : الكرم والشرف .

ويصور فزع سيداته الجميلات حين علمن بالخبر الفاجع وكيف انتهكت حرماته ثم يصف القتل والقتلة وصفًا مؤثراً . وله مرثية رائعة يرثى بها طائفة من بنى حميد الطوسى خرُّوا صرْعَى فى ميادين الثغور دفاعًا عن العَرين العربى ، وفيهم يقول[١] :

قبورٌ بأطراف الثُّغور كأنما ... مواقعُهم منها مواقعُ أنجمِ
مضوا يستلذّون المنايا حفيظةً ... وحفظاً لذاك السؤدد المتقدِّمِ
وكلُّهم أفضى إليه حِمَامُــه ... أميرًا على تدبير جيشٍ عَرَمْرَمِ[٢]
مساعٍ عظامٌ ليس يَبْلَى جديدها ... وإن بَلِيَتْ منهم رمائمُ أعظمِ

والمرثية بكاء حار لهؤلاء الأبطال الذين استشهدوا تحت ظلال السيوف فداء لوطنهم بأرواحهم واستبسالا بعد أن أذاقوا الأعداء كئوس الموت دهاقًا .

واشتهر البحترى بإجادته للغزل ، ومرَّ بنا أنه أحبَّ فى شبابه عَلْوة الحلبية وظلت ذكراها لا تبارحه ، وظلت تستولى على قلبه ، وكانت قد صبت إليه كما صبا إليها وبادلته وداً بود ، ثم تزوجها الذفافى كما أسلفنا ، فسلت عنه ، ولكنه لم يسل عنها ، وفى ديوانه مقطوعة يهجوها بها قد يكون نظمها فيها ساعة غضب انتابته ، وإن كنا نظن ظنًّا أنها منحولة عليه ، فقد ظل قلبه لها فى سامرَّاء وبغداد كما ارتحل عنها ، فهو لاينى يذكرها بمثل قوله فى مقدمة ملحه للمعتز[٣] :

كم ليلةٍ فيكِ بِتُّ أَسْهَرُها ... ولوعةٍ فى هواكِ أُضمرها
وحرقةٍ والدموعُ تُطْفئها ... ثم يعود الجَــوى فيُسْعِرها
يا عَلْوُ عَلَّ الزمانَ يُعْقبنا ... أيام وصلٍ نظلُّ نشكرها

وكأن السنوات الطويلة التى مضت بين حبه لها فى شبابه ومديحه للمعتز وهو فى نحو الخمسين من عمره لم تطفىء لوعته وحرقته ، فقد ظلت نار شوقه وحبه

---

(١) الديوان ٣/١٩٤٥ .
(٢) عرمرم : كثيف .
(٣) الديوان ٢/١٠٧٤ .

لها مشتعلة بين جوانحه ، وظل يصدر عنها فى قطع مفردة وفى مقدمات مدائحه من مثل قوله[١] :

وخلافُ الجميل قولُك للذَّا ... كر عهدَ الأحباب صَبْرًا جميلا
لا تَلُمْه على مواصلة الدَّمـ ... ـعِ فلومٌ لَوْمُ الخليل الخليلا
عل ماءَ الدموع يُخمد نارًا ... من جَوَى الحبِّ أو يبلُّ غليلا

وكانت لدى البحترى قدرة بارعة فى وصف مظاهر العمران ، بما أتيح له من دقة فى التصوير والتعبير ، ولم يكد يترك قصراً بناه المتوكل دون أن يصفه موجزاً أو مسهبًا ، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور . ومرَّ بنا وصفه الرائع لإيوان كسرى ، ومن القصور التى أجاد فى وصفها قصر الكامل الذى بناه المعتز وفيه يقول[٢] :

ذُعِرَ الحَمامُ وقد ترنَّم فوقه ... من منظرٍ خَطِرِ المزلَّةِ هائلِ[٣]
رُفعتْ لمنْخَرِقِ الرِّياح سموكُه ... وزهتْ عجائبُ حسنه المتخايلِ[٤]
وكأَن حِيطان الزجاج بجَوِّهِ ... لُجَجٌ يَمُجْنَ على جُنوب سواحل
لبستْ من الذهب الصقيل سُقوفُه ... نورًا يضىء على الظلام الحافل[٥]

وقد مضى يصف رخامه وخطوطه المتقابلة وما امتد أمامه من بستان أنيق وما يجرى فيه من مياه دجلة المفضضة ومن نسيم الصَّبا الحانى . وكان القدماء يعجبون أشد الإعجاب بوصفه لبركة أقامها المتوكل بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين ، وفيها يقول البحترى[٦] :

يا مَنْ رَأَى البِرْكةَ الحسناءَ رُؤْيَتُها ... والآنساتِ إذا لاحتْ مغانيها[٧]
تنصبُّ فيها وفود الماء معجلةً ... كالخيل خارجةً من حَبْل مُجْرِيها

---

(١) الديوان ٣/١٧٦٧
(٢) الديوان ٣ / ١٦٤٨ .
(٣) المزلة : المزلق .
(٤) منخرق الرياح : مهبها . سموكه : أعاليه .
(٥) الحافل : الكثير .
(٦) الديوان ٤ /٢٤١٦ .
(٧) الآنسات هنا جوارى المتوكل وكانت منازلهن تحفّ بالبركة .

كأنما الفضَّةُ البيضاءُ سائلةً من السبائك تَجْرى فى مجاريها
فرونقُ الشمس أحياناً يضاحكها ورَيِّق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجومُ تراءتْ فى جوانبها لَيْلًا حسبتَ سماءً رُكِّبتْ فيها

ويتحدث عن السمك المحصور فى البركة والصحن الممتد فى أسفلها والبهو الممتد فى أعاليها وتمثال الدُّلْفَين الذى كان مقامًا عليها ، والبساتين والرياض التى تحف بها والأزهار التى تشبه ريش الطواويس فى تلاوينها العجيبة . ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شاعرية البحترى الرائعة وكيف أنه استطاع أن يتلافى بملكاته الخصبة القصور فى ثقافته الحديثة ، فإذا هو يملك من أدوات التعبير ما يستحيل به شعره إلى أنغام وألحان خالصة .

٣

ابن الرومى

هو على[1] بن العباس بن جريج ، ويبدو أن أول من أسلم من آبائه أبوه القريب العباس ، وقد نشأ على الولاء لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور العباسى . وكان يونانى الأصل كما يشهد بذلك اسم جده ، ونراه فى شعره ينسب نفسه إلى اليونان مراراً وقد يسميهم الروم أحيانًا من مثل قوله :

ونحن بنو اليونان قومٌ لنا حِجًى ومجدٌ وعيدانٌ صِلابُ المعاجمِ

(١) انظر ترجمته وأشعاره فى مروج الذهب ٤/١٨٢ ، ١٩٤ ،وتاريخ بغداد ١٢/٢٣ والموشح للمرزبانى ص ٣٥٧ ، وابن خلكان والنجوم الزاهرة ٣/٩٦ وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٢/١٨٨ ، ومرآة الجنان لليافعى ٢/١٩٨ وابن داود فى كتابه الزهرة وديوان المعانى للعسكرى فى مواضع متفرقة (انظر الفهرس) وابن الرومى (حياته من شعره) للعقاد وحصاد الهشيم للمازنى، ومن حديث الشعر والنثر لطه حسين ، والفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢٠٠ . واختيارات كامل كيلانى من ديوانه الضخم وقد نشرها باسم ديوان ابن الرومى ولايزال الديوان مخطوطاً لم ينشر . وانظر اختيارات روفون جيست منه مع دراسة عن حياة ابن الرومى وشعره ترجمة حسين نصار .

وقوله فى مواليه العباسيين :

مولاهمُ وغَذِىُّ نعمتهم والرُّوم — حين تنصُّنى — أَصْلى

ولم تكن أمه رومية ، بل كانت فارسية ، وعلى نحو افتخاره بأصوله من الروم يفتخر بأصوله وخئولته من الفرس ، حتى لينسب نفسه إلى ملوكهم الساسانيين ، وهى نسبة لم يكن عليها حجاب ، فكان كثير من الشعراء ذوى الأصول الفارسيَّة يدَّعونها ، ومن فخره بنسبه العريق — فى رأيه — من قِبَل أبيه وأمه قوله :

كيف أُغْضِى على الدنيّة والفرْ سُ خُئُولى والرومُ هم أَعْمامى

وقد وُلد لأبويه ببغداد سنة ٢٢١ للهجرة نِضْوا ضئيلا نحيلا دميم الوجه تقتحمه العيون ، وظل طوال حياته يَنْعَى على نفسه دقة جسمه وضآلته وقبحه ، وله فى ذلك أشعار كثيرة يصرِّح فيها بدمامته وما انضم إلى ذلك من صلعه الذى كان يأخذ معظم رأسه حتى اضطر ألا يخلع العمامة أبداً ، وله مقطوعة يصور فيها صلعه وقبح وجهه ، ونراه يختمها بقوله[١] :

شُغفت بالخرَّد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورعِ

كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيها مساجدَ الجمعِ

ويبدو أن أباه كان على شىء من اليسار ، وحقًّا توفى فى مطالع حياته ، ولكن يظهر أنه ترك للأسرة ما يتيح لها على الأقل كفاف العيش . وكان له ابن آخر يسمى محمداً عمل فى الدواوين الحكومية ، كما كانت له فتاة ماتت قبل أمها ، وابن الرومى فى نحو الخمسين من عمره . على كل حال مكَّن يسار هذه الأسرة لابن الرومى أن يتجه إلى التعلم فالتحق ببعض الكتاتيب ، وكانت تعنى بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والخطب وشيئًا من الحساب ، فالتهم ذلك كله الصبى ، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء فى المساجد تارة يستمع إلى محمد بن حبيب الراوية المعروف أو إلى زميله ثعلب ، وأخرى يستمع إلى بعض المحدِّثين أو بعض الفقهاء أو بعض رواة التاريخ والأخبار . وكانت دار الحكمة التى عُنى

---

(١) الديوان (مختارات الكيلانى) ص ١ .

بها الرشيد والمأمون مدّ يده وعينه ، وكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاضًا يقرأ ويستوعب ويستسيغ ويتمثل تمثلا نادراً[١] . وتكثر فى أشعاره الإشارة إلى حكماء اليونان الأقدمين ، كما تكثر أسماء الكواكب والنجوم . ومما لا ريب فيه أنه كان — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — يعتنق الاعتزال .

ويذكر معاصروه أنه كان ضيق الصدر سريع التغير والانقلاب ، وسنرى أثر ذلك فى أشعاره إذ كثيراً ما كان يضيق ببعض ممدوحيه فينقلب هاجيًا لهم ، ويذكر معاصروه أيضًا أن من كان يلقاه يراه كالمتوجّس المذعور ، وكأنما كان فى أعصابه شىء من الاختلال ، ولعل ذلك هو الذى أعدّه لأن يصبح أكبر شاعر متطيّر فى عصره . وكان إذا روجع فى كثرة تطيُّره احتج بقوله إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرَة ، أفتراه كان يتفاءل بالشىء ولا يتطيَّر من ضده ، ويقول إن عليًّا لم يكن يغزو غزاةً والقمر فى برج العقرب ، وكان يزعم أن الطِّيَرَةَ موجودة فى الطباع قائمة فيها[٢] . ويقصُّ معاصروه عن طيرته أخباراً كثيرة ، من ذلك أنه أغلق باب داره ثلاثة أيام لما تصادف من أنه كان يصير إلى الباب والمفتاح معه فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب فيرى جاراً له أحدب كان نازلا بإزائه يقعد على الباب . فإذا نظر إليه رجع عن عزمه على الخروج وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب[٣] . وافتقده فى مجلسه بعض الأمراء ، وكان يعلم حاله من الطيرة ، فأرسل له غلامًا يسمى إقبالا ليتفاءل به عند سماع اسمه ، غير أنه لم يكد يعزم على المضى معه حتى بدا له اسمه معكوسًا هكذا : لا بقاء، فقال له امض إلى سيدك وأنبأه بما فى نفسه ! . وأرسل له بعض الأصدقاء غلامًا له يسمى حسنًا ، وكان حسن الوجه ، طالبًا إليه أن يزوره ، فخرج معه ، وإذا أمام داره دكان خياط درفتاه على هيئة اللام ألف ، هكذا : لا ، وحانت منه التفاتة فرأى تحت الدرفتين نوى تَمْر ، فتطير ، وقال إن هذا يشير إلى :

---

(١) أشار أبو العلاء فى رسالة الغفران إلى تفلسف ابن الرومى قائلا إنه كان يتعاطى الفلسفة . انظر طبعة كيلانى ٢/ ٧٤ .

(٢) زهر الآداب للحصرى ٢ /١٧٢ .

(٣) زهر الآداب ٢ /١٧٧ .

أن « لا تمرّ » ورجع إلى داره ولم يذهب مع الغلام[١] . ومن المؤكد أن هذه الأخبار وما يماثلها دخلتها مبالغة كثيرة ، وقد يكون بعضها اختُلق عليه اختلاقًا . ويتوقف القدماء عند قصيدة بائية مدح بها أبا العباس بن ثوابة الكاتب ، وكان قد دعاه لزيارته فى سامرّاء ، فتعلل على سبيل الفكاهة بتصوير مخاطر الرحلة إليها من بغداد برًا وبحرًا بمثل قوله[٢] :

لقيتُ من البَرِّ التباريحَ بعد ما لقيت من البحر ابْيضاضَ الذوائبِ

وقد مضى يصف دجلة وبلاء الركوب فيه متفكها ، فأدخلوا ذلك فى باب طيرته ، ولا طيرة ولا ما يشبه الطيرة . وليس معنى ذلك أننا نريد أن ننفى تطيره ، إنما ننفى المبالغة فيه ، أما بعد ذلك فقد كان ابن الرومى يتطير حقًا ، واشتهر بذلك بين معاصريه ، حتى لنرى الأخفش على بن سليمان النحوى ، وكان قد هجاه ، يقتصّ لنفسه منه ، بأن يقرع عليه الباب فى الصباح ، فإذا قال من القارع ؟ أجابه بمثل مُرَّة بن حنظلة أو حرب بن مقاتل وغير ذلك من الأسماء التى تملؤه طيرة ، فيحبس نفسه فى بيته ، ولا يخرج يومه أجمع[٣] .

وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وهو لا يزال حَدَثًا فى الكتّاب ، إذ تُرْوَى له أبيات حينئذ فى هجاء غلام عباسى يسمى جعفراً كان زميلا له ، وكأن ذلك كان إرهاصًا بأن الهجاء سيغلب عليه طوال حياته . وقد مضى يتخذ الشعر — كلِداته — حرفة يتكسب بها ، فهو يعرضه على عِلْية أهل بغداد ، وكان طبيعيًا أن يعرضه على كبار الموظفين ورجال الدولة وفى مقدمتهم أبو العباس محمدبن طاهر حاكم بغداد منذ سنة ٢٣٧ ، وأسرة الطاهريين معروفة كان طاهر بن الحسين قائداً للمأمون وهو الذى قضى على ثورة الأمين ، وكان ابنه عبد الله بن طاهر أميرًا لخراسان وخلَفَه عليها ابنه طاهر . وحاول ابن الرومى الزلفى إلى محمد بالمديح ، ويبدو أنه لم يكن يتسع فى ثوابه ومكافأته ، وكان على علم بالشعر ، فأخذ ينقد بعض أشعار ابن الرومى ، وغاظ الشاعر الشاب نقده . بل لقد أخذ يحرمه نواله ، مما جعل ابن

---

(١) انظر فى هذه الأخبار زهر الآداب وذيله ص ٢٤٢ والعمدة لابن رشيق ١ /٤٠ ومعاهد التنصيص ١ /١٤٣ .

(٢) انظر القصيدة فى الديوان ص ٢ .

(٣) ذيل زهر الآداب ص ٢٤٣ ومعاهد التنصيص ١ /٤٣ .

الرومى يوجه إليه مثل قوله[١] :

مدحت أبا العباس أطلب رِفْده فخيَّبَنى من رفده وهَجَا شعرى

ويبدو أنه كان بخيلا ، وأن بخله كان السبب الحقيقى فى انصرافه عن الشاعر ، متعللا بأنه لا يعجب بشعره ، مما جعل ابن الرومى يصبّ عليه سياطًا حامية من الهجاء ، وهو يعمم فلا يقف بهجائه له عنده وحده ، بل يعمّ به أسرة الطاهريين جميعًا من مثل قوله[٢] :

إذا حسنتْ أخلاق قومٍ فبئسما خلفتم به أسلافكم آلَ طاهرِ
جنوا لكمُ أن تُمْدَحوا وجنيتمُ لموتاكمُ أن يُشْتَمُوا فى المقابر

وترنو عينه إلى سامرَّاء حاضرة الخلافة ومجمع كبراء رجال الدولة ووزرائها وموظفيها العظام، ويقْدم عليها لعهد المنتصر سنة ٢٤٨، ويمدح أحمد بن الخصيب وزيره ، ويعود سريعًا إلى بغداد ويظهر أنه وجد الأبواب مغلقة أمامه . وقد يكون السبب الحقيقى فى ذلك أنه عزف عن سامراء لتشيُّع فيه كان يضمره فى نفسه ، فتركها وعاد إلى مسقط رأسه . ولا يلبث يحيى بن عمر العلوى أن ينهض بثورة عارمة فى الكوفة ضد الدولة ، ويجند جيشًا كثيفًا لحرب العباسيين ، ويلتقى به محمد بن عبد الله بن طاهر لسنة ٢٥٠، وتدور عليه الدوائر ، ويقتل فى ساحة المعركة ويغضب له ابن الرومى غضبًا شديداً ، ويرثيه بجيمية[٣] طويلة ، يندبه فيها ندبًا حارًّا ، مصوراً حرقة حزنه عليه بمثل قوله :

سلامٌ وريحانٌ ورَوْحٌ ورحمةٌ عليك وممدودٌ من الظل سَجْسَجُ
ويا أسفى أن لا يردَّ تحيَّةً سوى أَرَجٍ من طيب نَشْرك يَأْرَجُ
ألا إنما ناح الحمائم بعد ما ثويتَ وكانت قبل ذلك تَهزج

ولا يبكيه وحده ، بل يبكى العلويين جميعًا منذ شهيدهم الحسين المقتول فى كربلاء ، ويتفجع على قتله مصوراً جزاءه فى علِّيين ، ويأسى أن يكون للعلويين

---

(١) الديوان ص ٤٣٨ .
(٢) الديوان ص ٣٩٦ .
(٣) الديوان ص ٢٢٤ .

دائمًا قتيل مضرج بالدماء دون خوف من الله وانتقامه ودون أى رعاية للرسول عليه السلام وآل بيته ، ويتناول العباسيين فى جرأة ، ويتوعدهم أن يُرَدّ الأمر إلى نصابه وأن يرجع الحق إلى أهله ، على يد علوى ثائر ، يحطم العباسيين بجيشه الكثيف حطمًا . ويتوجه إلى محمد بن عبد الله بن طاهر بالخطاب متمنيًا أن تزول دولته ودولة آله فى خراسان ، ويعلن أنهم أعداء الرسول والإسلام جميعًا ، وأن دولتهم لا بد أن تدول وتُمْحَق محقًا فينطفئ غليل الصدور وتبرأ القلوب الكليمة .

وعلى هذا النحو أصبح ابن الرومى يجاهر بتشيعه ، ولعل هذا الجانب فيه هو السبب الحقيقى فى أنه لم يحاول المثول بين يدى الخلفاء مادحًا ، وبالتالى لم يظهر فى مجالسهم بسامراء ، ومع ذلك كان كثير التردد عليها ، ولكنه لم يكن يتجاوز عَتَبَة الوزراء ، ويلاحظ أنه لم يحاول أن يمدح قواد الترك ، وكأنهم كانوا أبعد من أن يفهموا الشعر أو يثيبوا عليه ، ويشير الطبرى إلى ذلك بقوله : إنهم لم يكونوا يعرفون حدود الكلام[1] . ونمضى مع ابن الرومى بعد مرثيته الشيعية الآنفة الذكر ، فنجده يقف مع عامة بغداد لسنة ٢٥١ حين لجأ إليها الخليفة المستعين ، ووقعت الحرب بينه — ومعه أهل بغداد — وبين المعتز الذى بايعه الترك والجند فى سامراء وينضم محمد بن عبد الله بن طاهر إلى عامة بغداد ، ويحارب معهم جند المعتز ، وتصفو العلاقة حينئذ بين ابن الرومى وابن طاهر ، وبدا فى نهاية الأمر رجحان كفة جند المعتز ، فجنح ابن طاهر إلى الصلح وخلع المستعين ، وانتهت الأمور بعزله ثم قتله فى سنة ٢٥٢ . ويغضب ابن الرومى ولكن كأنما ذلك كان سحابة عارضة ، فتظل صلته بابن طاهر وثيقة ، على نحو ما يتضح من دالية له يرثيه بها حين توفى سنة ٢٥٣ افتتحها بقوله[2] :

إن المنيَّة لا تُبقى على أَحَـدِ ولا تهاب أَخا عزٍّ ولا حَشَدِ

وفيها يُشيد بكرمه وعدله فى الرعية واصفًا حزنها لفقده وألمها لموته وما سكبت عليه من عبرات . ويترلى مكانه حكم بغداد أخوه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ،

---

(١) الطبرى ٩/ ٢٨٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠ .

وهو أكثر الطاهريين معرفة وأدبًا ، وله كتب مصنفة مختلفة وأغان مدوَّنة . وهو أقرب ممدوحى ابن الرومى إلى نفسه ، فقد أغدق عليه جوائز وأموالا كثيرة ، وكان شاعراً ، يحسن فهم الشعر وتذوقه ، كما كان يحسن الفلسفة وفروعها المختلفة ، ومرَّ بنا تعرضه للبحترى ووقوفه ضده مع ابن الرومى ممثلا للذوق الجديد فى الشعر لعصره . ووجد فيه ابن الرومى راعيه الحقيقى ، راعيه المادى الذى يجزل له فى العطاء وراعيه المعنوى الذى ينوّه بأشعاره ويصفق لطرائفه استحسانًا ، وراعيه ضد خصومه أصحاب الذوق الأدبى المحافظ من أمثال البحترى . وهكذا وجد عنده كل ما كان يبتغيه لنفسه ، وكان عبيد الله يذهب إلى سامراء كثيراً للقاء الخليفة ، فكان يصحب معه ابن الرومى . ونراه يمدح أحمد بن إسرائيل وزير المعتز لسنة ٢٥٣ ويتعرَّف فى هذه الأثناء بأبى العباس أحمد بن ثوابة كاتب القائد التركى بايكباك لعهد المعتز والمهتدى ، وأصبح فيما بعد رئيس ديوان الرسائل ، وهو كاتب نابه ، ومرَّت بنا إشارة إلى مدحة له نظمها حين دعاه لزيارته فى سامراء معتذراً بمخاطر الرحلة برًّا وبحراً ، آملا أن تصله مكافأته فى بغداد ، ولا تمضى صلته بابن ثوابة إلى نهاية الطريق[1] . وهكذا هو دائمًا سرعان ما يتغير على ممدوحيه ، إما لقلة الجائزة وإما لمنعها منه وحرمانه ، وإما لأنه تخيَّل أى شىء عارض جعله يظن بصديق الأمس الظنون . ويتعرف عنده على أبى الحسن بن على الباقطائى كاتبه ونراه يعاتبه لتقديمه البحترى عليه[2] . وأهم من ابن ثوابة وكاتبه أنه تعرف منذ سنة ٢٥٥ على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل رئيس ديوان الضياع ، إذ نراه يهنئه برياسته لهذا الديوان ، ونراه فيما بعد يكثر من مديحه حين أصبح وزيراً للمعتمد . ويتردد على واسط ليمدح آل أبى شيخ .

ويُعْزَل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عن حكم بغداد سنة ٢٥٥ ويولَّى مكانه أخوه سليمان ، وكان أميراً لطبرستان فأخرجه منها الحسن بن زيد العلوى بعد حروب ومعارك طاحنة ، وكأنما أُعطى بغدادَ مكافأة له على هزيمته ! . ويقف ابن الرومى فى صف عبيد الله ، ويعجب كيف يُعْزل ويولَّى مكانه هارب ، وكأنما يُجْزَى بذلك خير الجزاء ، أو قل كأنما هى غنيمة نالها ببأسه وشجاعته ، وإنه

---

(١) انظر مدحته له فى الديوان ص ٦١ . (٢) الديوان ص ٢١٧ .

لخذلان من شأنه أن يصرف الناس عن الإقدام فى الحروب ، ويسخر منه فى مقطوعات مختلفة من مثل قوله[١] :

هو الأَسدُ الوَرْدُ فى قَصْرِهِ ولكنه ثَعْلَبُ المعركه

ويحدث أن يُجْمع الأتراك أمرهم ويصمموا على خلع المعتز ، لإقدامه على قتل بعض رؤسائهم ، ويرسلوا إلى سليمان بن عبيد الله بن طاهر حاكم بغداد أن يبعث إليهم بمحمد بن الواثق ليبايعوه بالخلافة ، ويبعث به ، وكأنما يجد ابن الرومى فى ذلك نكثًا من سليمان لبيعته للمعتز ، فيُصليه بقطعة من هجائه قائلا[٢] :

جاءَ سليمان بنى طـاهرٍ فاجتاح معتزَّ بنى المعتصمْ
كأَن بغداد لَدُنْ أَبصرتْ طلعتَه نائحةٌ تَلْتدم
مستقبَلٌ منه ومستدبَرٌ وَجْه بخيلٍ وقفا منهزم

وتتطور الظروف ، ويجيب المعتز قواد الأتراك إلى الخلع ، ويُحْبَس ويقتل فى محبسه بعد خلعه بستة أيام ، وحينئذ نرى ابن الرومى يغيّر موقفه من المعتز فيحذّره حين حُبس من أن يعاوده التفكير فى الخلافة ، وينظم فى ذلك قصيدة بائية يقول فيها[٣] :

دَعِ الخلافة يا معتزُّ من كَثَبٍ فليس يكسوك منها اللهُ ما سَلَبا

ويتغيَّر تبعًا لذلك موقف ابن الرومى من سليمان بن عبد الله بن طاهر ، ويهديه بعض مدائحه ، ويمنحه سليمان بعض الجوائز ، ثم يحدث أن جاراً ،اكراً له من تجار بغداد كان يعرف باسم ابن أبى كامل تطمح نفسه إلى شراء داره ، ويحاول أن يجبره على بيعها باغتصابه لبعض جدرانها وإفساد بعض جوانبها ، ويَسْتعدى عليه سليمان[٤] بن عبد الله بكافية طريفة سبق أن أنشدنا منها فى الفصل الماضى تعليله المشهور فيها لمحبة الأوطان ، وهو يدور على كل لسان ، وفيها يقول مصرًّا على أنه لن يبيع داره :

ولى وطَنٌ آليتُ أَن لا أَبيعَهُ وأَنْ لا يُرَى غيرى له الدهرَ مالكا

---

(١) الديوان ص ٣٤١ .
(٢) الديوان ص ٢٨ .
(٣) الديوان ص ٤٥١ .
(٤) انظر زهر الآداب ٣/٩٩ .

ولوّح لسليمان بأنه يريد منه عوناً مالياً يصلح به داره ، ولكن سليمان لم يبادر إلى عونه ، فسخط عليه سخطاً شديداً وعاد إلى هجائه بالجبن والبخل ، وكان جده طاهر يلقب بذى اليمينين ، فقال فيما قال من هجائه :

له شِمالان حاز إرْثَهمـا عن ذى اليمينين شدَّ مـا اختلفا

ويدخل عصر المعتمد وأخيه الموفق الذى كان يُعَدّ الحاكم الحقيقى حينئذ ، إذ قلّم أظفار الجند الأتراك وقضى على ثورة الزنج قضاء مبرماً وهزم يعقوب الصفار هزيمة نكراء ، ودان له الولاة : الطولونيون وغيرهم مذعنين خاضعين ، وكان يتخذ صاعد بن مخلد كاتباً له ، ورفعه إلى مرتبة الوزارة سنة ٢٦٥ وامتد يُمْنه حينذاك إلى ابنه العلاء فأصبحت بغداد وواليها تابعين له ، وكان عبيد الله قد عاد إلى حكم بغداد سنة ٢٥٩ وظل يحكمها ثلاث سنوات ، ثم وليها محمد بن طاهر بن عبد الله ابن طاهر ثم عاد إليها عبيد الله تابعاً للعلاء بن صاعد سنة ٢٦٦ حتى سنة ٢٧١ . وأقبلت الدنيا على ابن الرومى مع إقبالها على صديقه عبيد الله . فكانت تلك السنوات أهنأ أيامه ، وأكثر فيها من مديح عبيد الله مع كل مناسبة : مع أعياد النيروز والمهرجان ومع عيدى الفطر والأضحى . وفى ديوانه مدائح مختلفة لصاعد وابنه العلاء ، ويغلب أن يكون اتصل بهما مبكراً ، حتى إذا أصبحت بغداد وعبيد الله ابن عبد الله بن طاهر تابعين للعلاء أكثر من الصلة بهما ومن مديحهما ، وله فيهما دالية[1] طويلة . وفيهما يقول :

وكل مديحٍ لم يكن فى ابن صاعدٍ ولا فى أبيه صاعدٍ فَهْوَ حابِطُ

وكانت قد أخذت المنافسة بينه وبين البحترى تمتدّ ، وانقسم الأدباء قسمين : قسماً هو الأكثر لما كان يؤازره من اللغويين ، وهم أنصار البحترى ، وقسماً مقابلا هو أنصار ابن الرومى وفى مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما أسلفنا ، ونرى ابن الرومى يهجو خصمه ببائية طويلة[2] يقول فيها إن الحظ أعمى ولولا ذلك ما نال البحترى ما نال من الشهرة بشعره الغث فى رأيه ، ويزعم أنه ليس له فيه شىء فكله إغارات وسرقات ونهب من دواوين أسلافه ، ويستعدى عليه — كما مرّ بنا فى غير هذا الموضوع — العلاء بن صاعد الذى أمّن الطرق من اللصوص قائلا :

---

(١) الديوان ص ٣٩٠ .

(٢) الديوان ص ٣٤ .

أيسرقُ البحتريُّ الناسَ شعرهمُ   جهرًا وأنت نكال اللصِّ ذى الرِّيب

يعيبُ شعرى وما زالت بصيرتُه   عمياءَ عن كل نور ساطع اللَّهَبِ

وفى البيت الثانى ما يدل على أن البحترى كان بدوره يبادله نقداً لشعره ، وغضب له عبيد الله بن عبد الله بن طاهر كما مرَّ بنا ، وأصلَى البحترى أشعاراً حامية ، نعى فيها عليه أنه غير مثقف بالثقافة الفلسفية الحديثة مثل ابن الرومى الذى لا يُلْحَقُ شأوه ، والذى تعَمق الفلسفة والمنطق . وردَّ عليه البحترى كما أسلفنا فى حديثنا عنه . وما زالت المنافسة مشتدة بين الشاعرين حتى جمع بينهما بعض الأدباء مثل سليمان بن الحسن بن مخلد وعبد الله بن الحسين القطربُّلىّ ، فتصافيا وتوادّاً واعترف كل منهما بفضل صاحبه .

ومن الغريب أن ابن الرومى لم يكن يستطيع أن يُبْقِى على علاقة حسنة بوزير أو بابن وزير ، فقد كان يكفى كل منهما ألا يُنفذ إليه الجائزة أو يقالل منها ، فإذا هو خصم لَدُودٌ ، وإذا هو يَسُلُّ لسانه ويَبْرى شعره سهامًا مُدْمية . وهو ما حدث بينه وبين صاعد وابنه العلاء ، فقد أخذا يهملان نواله على مدائحهما بعض الإهمال واستشاط غضبًا ، وأخذ ينزل عليهما شُواظ هجائه من مثل قوله [1] :

لِيَهْنِكُمْ أنْ ليس يوجد منكمُ   لبوسُ ثياب المجد لكن خَلُوعها

وظل يتشفَّى حتى بعد سقوطهما والإلقاء بهما فى غياهب السجون سنة ٢٧٢ . وكان يتصل ببعض كبار موظفى الدولة ، وكان منهم من يتعصب للبحترى فكانوا يردُّونه ردًّا قبيحًا ، وقد يهملونه ولا ينيلونه أى عطاء على ما يقدّم إليهم من المدائح ومن خير الأمثلة على ذلك إبراهيم بن المدبر ممدوح البحترى وصديقه الذى ولى ديوان الرسائل حينًا وتولى ولايات مختلفة . وكان قد اشترك — كما مر بنا فى الحديث عن البحترى — فى حرب الزنج ، ومدحه ابن الرومى فلم يلتفت إليه ، وتصادف أن كان يلى خراج الأهواز سنة ٢٥٧ ودخلها بعض جنود صاحب الزنج فثبت لهم فيمن ثبتوا ، وأصابته شَجَّة فى وجهه ، وأُسر ، واستطاع التخلص من أسره ، ونرى ابن الرومى يشمت به ، ويسجل عليه جبنه وبخله فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، وله يقول [2] :

---

(١) الديوان ص ٥١ .   (٢) الديوان ص ٦٦ .

قل لى بأَية حيلة أَعملتَها هتفوا بأَنك ـ لاحُفظتَ ـ جوادُ
لقد استفاض لك الثناءُ بحيلة صعب الأُمور بمثلها ينقادُ

ومرَّ بنا أنه تعرف على أبى الصقر إسماعيل بن بلبل منذ عصر المعتز حين أصبح رئيس ديوان الضياع فى سامرَّاء ، وظل منذ هذا الحين موصولا به ، وكان الموفق قرَّبه منه واتخذه كاتبًا له ، فكان يغدو عليه ويروح سواء حين يكون فى سامرَّاء ، أو مع الموفق فى واسط فى أثناء معاركه مع الزنج . ورفعه الموفق إلى مرتبة الوزارة فترة لسنة ٢٦٥ حتى إذا نكَّل بصاعد سنة ٢٧٢ استوزره من بعده له ولأخيه المعتمد ، وفرح ابن الرومى بما ناله ، فدبَّج فيه قصيدة طويلة[١] ، استهلها بالغزل نافذاً إلى طريقة جديدة ، إذ عرض من خلال وصفه لصاحبته ما فى الحدائق من فواكه شهية ، حتى سماها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر دار البطيخ أى حانوت الفواكه ، ومضى بعد ذلك فى مديح أبى الصقر مدحا رائعًا ، غير أنه لما استمع إلى قوله :

قالوا أَبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبانُ

ظن أنه يعرّض به ، لأنه كان يدعى نسبه من شيبان ولم يكن شيبانيًّا حقيقة فقال : هجانى ، وراجعه بعض الحاضرين قائلا له : إن هذا من أحسن المدح ، ألا تسمع ما بعده :

وكم أَبٍ قد علا بابنٍ ذُرَى شرفٍ كما علتْ برسول الله عدنانُ

فقال : أنا بشيبان ، وليست شيبان بى ، وملأه الغيظ والغضب على ابن الرومى ، فقيل له : ألم تسمعه يقول :

ولم أُقَصِّر بشَيْبانَ التى بلغتْ بها المبالغَ أَعراقٌ وأَغصانُ
لله شيبانُ قومٌ لا يشوبهمُ رَوعٌ إذا الرَّوع شابتْ منه وِلْدان

فاستمر فى غَيِّه وسوء فهمه ، وقال : والله لا أثيبه على هذا الشعر[٢] . وواضح أن أبا الصقر لم يفهم معانى القصيدة ولامراد ابن الرومى فى البيت الأول وغيره من

(١) الديوان ص ٢٠ .
(٢) زهر الآداب ١/ ٢٤٤ وما بعدها .

الأبيات ، فكان طبيعيًّا أن يحرمه الجائزة ، وكأنه أيضًا لم يفهم قوله فى القصيدة مادحًا له :

فَرْدٌ جميعٌ يراه كلُّ ذى بصرٍ كأنه الناسُ طُرًّا وهْو إنسانُ

ولم يكن هذا وبالا على ابن الرومى بقدر ما كان حربًا على ابن بلبل فقد أخذ يهجوه ابن الرومى هجاء مرًّا ساخراً من ادعائه أنه شيبانى حقيقة ، مثبتًا عليه أنه دعىّ فى شيبان لصيقٌ بها ، يقول ساخراً هازئًا به[1] :

تَشَيْبَن حين همَّ بأَن يشيبا لقد غلط الفتى غلطاً عجيباً ؟

وقد مضى يذكر أن شيبان ستشيب من هذا الخطب الجسيم ، إذ يدعى النسب فيها أعجمى نبطى ، وينعى كيمياء الحظوظ التى أتاحت له مجد الوزارة . ويظل يهجوه حتى يزج به المعتضد فى السجن لعام ٢٧٩ وما يلبث أن يموت فى سجنه ، وابن الرومى فى أثناء هذه النكبة التى حلَّت به يهجوه أهاجى كثيرة من مثل قوله[2] :

فلئن نُكبتَ لطالما نُكبتْ بك همةٌ لجأَتْ إلى سَنَدِكْ
يا نعمةً ولَّتْ غضارتُها ما كان أقبحَ حُسْنها بيدكْ

وكان عبيد الله بن عبد الله بن طاهر قد عُزل عن حكمه لبغداد سنة ٢٦٢ ثم عاد إلى حكمها — كما مرَّ بنا — فى سنة ٢٦٦ فكان يكتفى بالمعيشة فى ظلاله . وكانت العلاقة بينهما — كما أسلفنا مراراً — وثيقة ، ووظَّف له أخوه محمد فى بعض فترات حكمه لبغداد ، ومات وهو فى خدمته وماتت قبله بمدة أمه ، وله فيهما مرثيتان .

وكان طبيعيًّا أن يكثر مديحه لبعض ذوى البيوتات فى بغداد وفيما حولها من المدن والضواحى ، وممن نراهم ماثلين فى ديوانه بنو فياض وهم يرجعون إلى أصول فارسية ، وكانت لهم إقطاعات وضياع واسعة فى دير العاقول بالقرب من بغداد ، وتَمْثُلُ فى ديوانه أسرة بنى نوبخت الفارسية الأصل ، وهى تشتهر من قديم بثقافة

---

(١) الديوان ص ٤٨ . (٢) زهر الآداب ١/٢٤٤ وما بعدها .

أبنائها وكثرة ما ترجموا من الفارسية إلى العربية ، وأهمُّ شخص يُكْثر من مدحه بينهم أبو سهل إسماعيل بن على ، وكان من رءوس الشيعة ، ويقال إنه مؤسس الفرقة الإثني عشرية ، وفى صلته به ما يؤكد تشيعه وأن من الممكن أن يكون على مثاله إماميًّا يعتنق مذهب الاثنى عشرية . ومن الأسر التى أكثر من مدحها أسرة بنى حماد قضاة بغداد ، خاصة منهم القاضى إسماعيل بن حماد المتوفى سنة ٢٨٢ ونراه يمدحه فى قصيدة بائية محاولا أن يبرئ نفسه من تهمته بالزندقة التى نُقلت إليه ، ويستشهد على صحة براءته بابنين عدلين للقاضى يعرفان حقيقة أمره ، ويستحثه على التنكيل بوشاة السوء الذين دبَّروا اتهامه بهذه التهمة النكراء ، ويقول إنهم هم الذين دبَّروا الثورة عليك وجعلوا العامة ترمى دارك بالحصى والحجارة ، يقول[1] :

حملوا حملةً على الدين تَحْكى ... حملة الروم رافعين الصَّليبـا
وأرادوا بك العظيمة لكنْ ... أوسع الله سعيهم تخييبا
وكأن الغوغاءَ لما تَغاووا ... فرموا داركم قضوا تحصيبا[2]
زعموا أن ذاك غزوٌ وحجٌّ ... تبَّب اللهُ أمرهم تَتْبِيبَـا

ولم تَرْوِ كتب التاريخ هذه الفتنة أو الثورة ضد القاضى ، ولعل فى ذلك ما يدل على أن الشعر فى هذا العصر يقدم إلى المؤرخين وثائق تاريخية قد لا يجدونها فى كتب التاريخ المعروفة ، على نحو ما مرَّ بنا عند البحترى وتسجيله لمعركة ابن دينار البحرية ضد الأسطول البيزنطى وحرقه ، فإن كتب التاريخ لم تشر إلى ذلك بحرف . وتتردد فى الديوان أسماء أصدقاء كثيرين فى مقدمتهم أبو عثمان الناجم راويته ، وقد حضر موته ، وابن المسيب الكاتب وأحمد بن عبيد الله وأحمد بن بشر المَرْثدى وكان كاتبًا فى ديوان الموفق وابن عمار[3] ، وكان شاعراً ومن نقدة الشعر فى عصره . وأكثر قصائده التى وجه بها إلى المرثدى يطلب إليه فيها بعض السمك ، ويقال إنه كان قد وعده أن يبعث إليه كل يوم بوظيفة منه لا يقطعها ، فبعث إليه يوم سبت

---

(١) الديوان ص ٣٠٩ .
(٢) التحصيب هنا : رمى الجمار بمنى .
(٣) انظر توصيته لأبى سهل بن نوبخت به فى الديوان ص ١٢٣ .

بهدية منه ، ولم يرسل السبت التالى . فكتب إليه قصيدة يقول فيها[١] :

ما لحيتاننا جَفَتْنا وأنّى أخلفَ الزائرون منتظريهم
قد سَبَتْنَا وما أتَتْنا وكانوا يوم لا يسبتون لا تأتيهم

ومن الشخصيات التى ظل يمدحها طويلا على بن يحيى المنجم ، وهو من كبار المثقفين فى عصره ، وسبق أن تحدثنا عن مكتبته العظيمة ، وكان شاعراً ونديماً رفيعاً للخلفاء من المتوكل إلى المعتمد ، ولا يُعْرف بالضبط بدء اتصال ابن الرومى به وله فيه قصائد ومقطوعات كثيرة ، وله يعاتبه[٢] :

لِتَهْنَأْ رجالٌ لا تزال تجودهم سحائبُ من كلتا يديك مواطرُ
عُنيت بهم حتى كأنك والدٌ لهم وهم – دونى – بنوك الأصاغر

وممن تدور أسماؤهم فى ديوانه جَحْظة ، وكان شاعراً ويحسن الضرب على الطبل ، وكان ينادم المعتمد ، وهو نديم من نوع آخر غير نوع على بن يحيى المنجم ، نديم مضحك ، يتّخذ للهزؤ به والفكاهة . وكان يصطدم بكثير من الشعراء فى عصره فيكويهم بأهاجيه ، وفى مقدمتهم مثقال وهو محمد بن يعقوب الواسطى ، وإبراهيم البيهقى شاعر عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، وأبو حفص الوراق ، وابن أبى طاهر وابن الخبازة وخالد القحطبى ، فقد كان يُشِبُّ مع كل شاعر منهم معركة حامية الوطيس ، وكان دائماً هو المنتصر لحصب ملكاته وخياله . وتعرض بالهجاء للمبرد لأنه كان يقف فى صف البحترى ضده ، وتبعه تلميذه الأخفش فى هذا التعصب ولم يكتف بإعلان رأيه فى شعره ونقده فقد كان يأتيه من قبل تطيره كما أسلفنا ، وممن كان يعيب شعره نفطويه النحوى ، ولذلك لم يسلم من أهاجيه .

ويُظلُّه عصر المعتضد منذ سنة ٢٧٩ ، وكانت قد عادت الخلافة إلى بغداد حاضرتها السابقة منذ سنة ٢٧٦ ، ويحس كأن الحياة أقبلت عليه وعلى مسقط رأسه كليهما . ويكثر من ذكر المعتضد فى قصائد ومقطوعات مختلفة ، ويبدو أنه لم ينشد أمامه واحدة منها ، فقد كان تشيعه لا يزال يبعده عن القصر ، وفى رأينا أنه

---

(١) ذيل زهر الآداب ص ٢٣٩ .
(٢) الديوان ص ٣٤٢ .

هو السبب الأهم فى أن الوزراء كانوا يقبلون عليه ثم يزورُّون عنه اضطراراً لما ذاع من تشيعه. ونرى ابن الرومى يتعرض فى أشعاره له لبسالته فى حروب الزنج، ولتأخيره النيروز مفتتح الخراج إلى الحادى عشر من حزيران وسماه النيروز المعتضدى قاصداً بذلك إلى الرفق بالرعية — كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع — وكان عملا جليلا. ويذكر بسالته فى صيد الأسد، ويهنئه بالأعياد وبزواجه من قَطْر الندى الأميرة المصرية بنت خمارويه لسنة ٢٨١ وله يقول فى هذه المناسبة[١]:

يا سيد العُرْب الذى زُفَّتْ له ... باليُمْن والبركات سيدة العجَمْ
اسْعَدْ بها كسُعودها بك إنها ... ظفرتْ بما فوق المطالب والهمم
ظفرتْ بِمِلْئَىْ ناظريها بهجةً ... وضميرها نبلا وكفَّيها كرم
شمس الضحى زُفَّتْ إلى بدر الدُّجَى ... فتكشَّفت بهما عن الدنيا الظُّلم

وكانت الوزارة قد تحولت منذ سنة ٢٧٨ إلى آل وهب، ويبدو أن صلة الشاعر بهم ترجع إلى أمد أبعد من ذلك، وبمجرد وصولهم إلى الوزارة نراه يقدم مدائحه لعبيد الله بن سليمان بن وهب، وكان كاتبًا مجيداً، ومدبراً لشئون الدولة حصيفًا، وكان له أخ يسمى وهبًا مدحه ابن الرومى فى غير قصيدة كما مدح ابنيه الحسن والقاسم، وهو يهلل طويلا لمجىء دولتهم، وتارة يمدحهم مجتمعين باسم آل وهب، وتارة يفرد لكل منهم القصائد الطويلة، ومن قوله فى مديح عبيد الله[٢]:

إذا أبو قاسمٍ جادتْ يداهُ لنا ... لم يُحْمد الأَجودان: البحر والمطَرُ
وإن مضى رأيه أو حَدَّ عزمتهُ ... تأخر الماضيان: السيفُ والقدر
وإن أضاءتْ لنا أضواءُ غُـرَّتهِ ... تضاءل النيرَّان: الشمسُ والقمر
ينال بالظن ما يَعْيَى العِيانُ بهِ ... والشاهدان عليه: العَيْن والأَثَرُ

وكان القاسم الابن الأصغر لعبيد الله إلا أنه كان مقدماً عنده لذكائه، ولذلك

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ١٨٢/٤.
(٢) ابن الرومى للعقاد (نشر المكتبة التجارية) ص ٢٦٥.

أخذ يولّيه بعض المناصب وهو صغير ، وكان إذا غاب أنابه عنه . وكان يعطف على ابن الرومى قبل تولى أبيه الوزارة ، ويقال إنه كان يجرى عليه راتباً ، حتى إذا دانت الدنيا لأبيه أخذ يُجزل له فى العطاء ، مما جعل ابن الرومى يُصْفيه مديحاً رائعاً . ولا نكاد نقبل على سنة ٢٨٢ حتى تُعاود ابن الرومى طبيعته ، وكأنما ضاق القاسم وأبوه بكثرة شكواه وإلحاحه المتكرر على العطاء ، ويبدو أن بعض الوشاة الحساد أخذوا يدسون عليه عندهما ، فحاولا إبعاده ، وشَعَر بضيق شديد فأخذ يعاتبهما ، وازداد الأمر — فيما يبدو — سوءاً إذ منعا عنه الجائزة أحياناً ، فأخذ يستعطفهما ، غير أنهما لم يصيخا له ، على الرغم من استصراخهما لبؤسه ، وعبثاً يناديهم ألا يضنوا عليه بالقوت وأن يعرفوا له حق الأديب[1] حينئذ يفزع إلى قوسه القديم ، قوس الهجاء المرير ، ويريش لهما سهاماً مصمية من مثل قوله[2] :

تسميتُمُ فينا ملوكاً وأنتمُ عبيدٌ لما تَحْوى بطونُ المزاودِ
لكم نعمةٌ أَضحتْ بضيق صدوركم مبرَّأةً من كلِّ مُثْنٍ وحامد
فإن هى زالت عنكمُ فزوالها يجدِّد إنعاماً على كل ماجد

ويفسد ما بينه وبين آل وهب فساداً لا يمكن رَأْبه .

وتتردد فى الديوان بأخرة من حياة ابن الرومى شخصيات من آل الفرات الذين سيسطع نجمهم فى عهد المقتدر ، كما تتردد أسماء شخصيات كثيرة مثل أحمد بن محمد الطائى والى الكوفة لعهد المعتمد ، ويبدو أنه ظل متصلا به حتى أواخر حياته . ويلقانا محمد بن داود بن الجراح الكاتب وأحمد بن محمد الواثقى صاحب شرطة بغداد وعيسى بن موسى المتوكل الذى نعى عليه بخله بمقطوعات ساخرة ، وكاتب مسيحى للقاسم يسمى عَمْراً ، وله فيه أهاج تقطر سمّا زعافاً ، وابن فراس وكان فيما يبدو لغوياً .

---

(١) الديوان ص ٢١٢ .

(٢) الديوان ص ٣٩٦ — ٣٩٧ وانظر مقطوعة فى كتاب ابن الرومى لروفون جيست ص ١٧٨ يدعى فيها أن آل وهب أحيوا دين الصليب وعنوا بتشييد الكنائس وهدم المساجد .

ويغصّ الديوان بأسماء كثير من الجوارى القيان المطربات مثل بستان وجلنار وبدعة وشاجى ودُريرة وغنّاء ووحيد ومظلومة وظلوم، وأكثرهن كن لوزراء أو لأمراء مثل عبيد الله بن عبد الله بن طاهر والقاسم بن عبيد الله، وكان بجوارهن قينات وجوار لا يعجب بأصواتهن ولا بسماعهن، مثل شُنْطف، وفيها يقول[1]:

وإن سكوتها عندى لبُشْرى ... وإن غناءها عندى لمَنْعَى
فقرِّطْها بعقرب شَهْر زُورٍ ... إذا غنّت وطوِّقها بأَفْعى

ومن أهم جوانب الضعف فيه أنه كان نهماً فى الأكل نهماً شديداً، ولذلك يكثر فى أشعاره وصف الأطعمة من كل لون حلو وحامض، كما يكثر وصف الأشربة، ومن عجب أن القدماء وصلوا بين هذا النهم وموته لسنة ٢٨٣ أو ٢٨٤ فقالوا إن القاسم بن عبيد الله دسّ إليه السم فى خشكنانجة، فلما ازْدَرَدَها أحسّ بالسم فى بطنه فقام مسرعاً؛ فقال له القاسم إلى أين؟ فأجابه إلى حيث أرسلتنى، فقال له: سلّم على والدى عبيد الله، فأجابه: ما طريقى على النار. والصحيح أنه توفى عن نحو ستين عاماً نتيجة لعلله وأمراضه، وهى على كل حال سن عالية.

ولابن الرومى ديوان ضخم لم ينشر حتى الآن، إنما نشر منه الشيخ محمد شريف سليم جزءين، ونشر منه كامل كيلانى مختارات باسم ديوان ابن الرومى، وهو الذى نرجع إليه غالباً. ومن يتصفح ما نُشر منه يلاحظ توًّا أنه يختلف عن دواوين الشعر العربى التى عاصرته وسبقته، ففيه موضوعات متنوعة عن الحياة وشرورها وعن الناس وحرفهم وملابسهم وعن الموت وعن الأطعمة والأشربة ومُتَع الحياة، وعن طبائع الناس وعن النساء وأخلاقهن وعن الطرد والقنص وعن المسرات والآلام، بحيث يصبح من الصعب تشكيل موضوعاته بأعداد رقمية. ومع ذلك سنعرض شعره على الموضوعات الأساسية للشعر العربى، مع ملاحظة ما يمتاز به من صفات خاصة به وبشخصيته الشعرية الخصبة. ومرّ بنا فى الفصل الماضى تصويرٌ من بعض الوجوه لذخائره العقلية، وكيف أدّاه اعتزاله مبكراً إلى أن

---

(١) الديوان ص ١٠٥.

يتمثل جميع الثقافات فى عصره فلسفية وغير فلسفية . وإذا هو يستقصى المعانى استقصاء نادراً حتى لايكاد يترك فى معنى شعبة دون عرضها والإلمام بها ، وإذا هو يوغل فى الأفكار ويستنبط منها مستوراتها الخفية ، وإذا هو يسلط عليها أشعة المنطق بكل أقيستها وعللها ، فتبدو فى أضواء واضحة وضوحًا مطلقًا ، وليس ذلك فحسب فإنه استطاع أن يغير فى سمات كل موضوع قديم بفضل ما ألقاه عليه من الأضواء والظلال العقلية . وهو بحق يمثل النزعة التجديدية فى العصر ، على حين كان البحترى يمثل النزعة التقليدية على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

وأول ما نقف عنده المديح ، وبعض قصائده فيه يطول طولا مسرفًا حتى لتبلغ القصيدة نحو ثلثمائة بيت ، وعادة يقدم لمدائحه بما تعارف عليه الشعراء من قبله من مقدمات ، ولكنه ينوّع فيها ، فقد يختار النسيب مثلا ، ولكنه يتحوَّل به كما فى قصيدته النونية[١] التى مدح بها أبا الصقر إسماعيل بن بلبل إلى تجسيد فواكه البستان فى المرأة ، حتى سَمَّى بعض معاصريه — كما أسلفنا — القصيدة باسم دار البطيخ وكانوا يطلقونها على دكان الفاكهة . وقد يختار وصف[٢] الطبيعة والربيع ويُبْدع فى وصفه ، إذ كان مفتونًا بها فتنة العاشقين الواهين ، مما يميزه بحق عن شعراء العربية . وقد يدمج فى القصيدة وصف[٣] مجلس سماع ؛ فيصور آلات الطرب ومن يَحْمِلْنَها من القيان فى صور بديعة على نحو ما يلقانا فى نونيته التى مدح بها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ، والتى يفتتحها بقوله[٣] :

وقيـــانٍ كأنها أمهاتٌ عاطفاتٌ على بَنيها حَوانِ

وقد أنشدنا منها قطعة فى الفصل الماضى . ويضيف إلى وصف مثل هذا المجلس ذكر الخمر . وقد يختار بكاء الشباب الذى طالما تغنَّى به الشاعر العربى ، ولكنه يعرضه عرضًا جديداً على نحو ما نرى فى مقدمة قصيدته البائية[٤] التى مدح بها على بن يحيى المنجم ، فقد تحدث فيها عن الشيب والخضاب ودعاه حداداً كئيبًا

---

(١) الديوان ص ٢٠ .
(٢) الديوان ص ٢٩٩ ، وقد دون كامل كيلانى المقدمة وحدها دون المديح .
(٣) الديوان ص ٨٤ .
(٤) الديوان ص ١٧٧ .

على الشباب من شأنه أن يبكى صاحبه بدموع غزّار ، ثم أخذ يصوّر سخرية الفتيات بخضابه باكياً الشباب بكاء لاذعاً . ويحذف المقدمة أحياناً طلباً للاختصار والوقوف عند عشرات الأبيات لا عند المئات – وتبلغ بعض المقدمات عنده أحياناً نحو مائة بيت – ويتفنن بعد ذلك فى المديح ، ومن الطريف أنه كان يلاحظ أن الشعراء فيه يبالغون ويفرطون فى مبالغاتهم فينسبون إلى الممدوحين ما لا يفعلون ، مسبَّة لا تمحى وعار ما بعده عار ، حتى ليصدق عليهم قوله تعالى : (والشعراء يتَّبعهم الغاوون ألم تَر أنَّهم فى كل واد يَهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون) ويستوحى ابن الرومى الآيات قائلا(١) :

يقولون مالا يفعلون مسبَّةٌ من الله مسبوبٌ بها الشعراءُ
وما ذاك فيهم وحده بل زيادة يقولون مالا يفعل الأُمراءُ

فهم يقولون ما لا يفعلون ، وليس ذلك فحسب ، بل يقولون أيضًا ما لا يفعل الأمراء ، كذبًا وبهْتانًا . وكأن ابن الرومى أحسَّ فى قوة ما كان يحمله المديح لعصره من كذب صراح . وإذا كنا لاحظنا أنه حاول التنويع فى مقدمات المديح فإننا نلاحظ أنه حاول التنويع فى المديح نفسه ، فإنه لم يقصره على المعانى المطروقة ، ويوضح ذلك مديحه لعلى بن يحيى المنجم فى بائيته التى أشرنا إليها ، آنفاً ، فإنه مضى فيها يمدحه على هذه الشاكلة :

لَوْذَعِىّ له فـؤادٌ ذكىٌّ ماله فى ذكائه من ضَريبِ
أَلمعىّ يرى بـأول ظَنٍّ آخرَ الأَمر من وراء المغيب
لا يروِّى ولا يقلِّب كفًّا وأكفٌّ الرجال فى تقليب
حازم الرأى ليس عن طول تجريـ ـبٍ لبيب وليس عن تلبيب
يتغـابى لهم وليس لموقٍ بل للبٍّ يفوق لُبَّ اللبيب
ليِّنٌ عِطْفه فإن رِيم منه مَكْسر العود كان جِدَّ صليب

وواضح أن هذا مديح من نوع غير مألوف ، مديح بالطباع والشمائل والملكات ؛

---

(١) الديوان ص ٣٧٦ .

فهو يمدحه بالذكاء وحسن البديهة والنظر الثاقب ، دون إبطاء فى الرأى أو ندم يلحقه ، وهو حازم لبيب بالفطرة ، يتغابى قصداً وسيد القوم المتغابى ، ويبدو ليّن الملمس وهو صلب العود صلابة شديدة . ومصدر هذا الجانب فى مديحه بدون ريب قدرته الخارقة على تحليل المعانى واستقصائها ، وكانت له قدرة خارقة أيضًا على النفوذ إلى كثير من الأخيلة المبتكرة من مثل قوله فى حُسَّاد صاعد مصوراً مجده الوطيد[1] :

وضدٍّ لكم لا زال يسْفُلُ جَدُّهُ ... ولا برحتْ أنفاسُهُ تتصعَّد
ولو قاس باستحقاقكم ما منحتمُ ... لأطفأَ نارًا فى الحشا تتوقَّد
وآنق من عِقْد العَقيلةِ جيدُها ... وأحسن من سِرْبالها المتجرِّد

وكانت لديه قدرة بارعة على عرض أخيلته فى مثل هذه الأقيسة ، فصاعد يستحق مجداً عظيما فوق ما مُنح من مجد الوزارة الذى أُسبغ عليه بفضل حزمه وحسن تدبيره ، وما مثل الوزارة بالقياس إليه إلا مثل العقد فى الجيد الجميل جمالا يفوقه ، بل مثل الثوب يُضفَى على الجسد الفاتن . ويجمع بين جمال الخلقة والأخلاق فى بعض ممدوحيه وينفذ إلى هذه الصورة البديعة[2] :

كلُّ الخصال التى فيكم محاسنكم ... تشابهتْ منكم الأخلاق والخِلَقُ
كأنكم شجر الأترجّ طاب معاً ... حمْلاً ونَوْرًا وطاب العود والورق

فهم مثل شجر الأترج يطيب عوده وورقه وزهره وثمره ، طيب على طيب ، وكثيراً ما تلقانا مثل هذه الأخيلة الدقيقة فى مديحه كقوله فى بعض ممدوحيه :

أوفى بأعلى رتبةٍ وتواضعتْ ... آلاؤه فأحطْن بالأعناقِ
كالشمس فى كبد السماء محلُّها ... وشعاعُها فى سائر الآفاقِ

والهجاء فنُّه الذى لا يبارى فيه ، وهو يتخذ عنده لونين : لونًا قاتمًا كله إقذاع وسَبٌّ وهتك للأعراض وقد يُطيل فيه إلى مئات من الأبيات ، ولونًا زاهيًا ينحو

(١) زهر الآداب ١ / ١٨٣ وانظر المختار من شعر بشار للتجيبى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٧٠ .
(٢) زهر الآداب ٤/ ١٤٦ .

فيه منحى السخرية والإضحاك ، وهو اللون الأهم فى هجائه ، لأن اللون السابق كثيراً ما نجده عند سابقيه ومعاصريه ، أما الهجاء الساخر فقد نَمَّاه إلى أبعد حد تُسْعفه فى ذلك قدرة بارعة على استغلال العيوب الجسدية فى مهجوّيه ، حتى ليصبح شبيهاً أدق الشبه بأصحاب الصور الكاريكاتورية ، فهم يستغلون العيوب الخلقية ويبرزونها بالطول أو بالعرض أو بالتضخيم أو بالتصغير إبرازاً مضحكاً فى كل صوره ، وكذلك كان ابن الرومى هَجَّاءً ساخراً يعرف كيف يصور العيوب الجسدية والمعنوية تصويراً مضحكاً ، ومرَّ بنا فى الفصل الماضى تصويره لشُحِّ عيسى بن موسى بن المتوكل وأنه لو استطاع لتنفس من منخر واحد أو فتحة واحدة من فتحتى أنفه بخلا وحرصاً ، وكذلك تصويره لبعض مهجويه بحيوانات مجترة ، ولم يعجبه بعض المغنين فصوَّره فى تحرك فكَّيه بالغناء بالبغل حين يحرك فكيه لأكل طعامه . ومرَّ بنا أنه كانت تؤذيه إيذاء شديداً رؤية جار له أحْدب ، وانتقم لنفسه منه بقوله فيه[1] :

قَصُرتْ أخادعُه وغاب قَذَالُهُ ... فكأنَّه متربِّصٌ أنْ يُصْفعا
وكأنما صُفِعتْ قفـــاه مرَّةً ... وأحسَّ ثانيةً لها فتجمَّعا

فجعله الدهر مصفوعاً يحاول أن يتقى صَفْعه بتجميع قفاه إلى ظهره ، وكانت تؤذيه اللحى حين تخرج عن مقدارها الطبيعى فيهجوها ويهجو أصحابها هجاء ساخراً مضحكاً ، وله فيها مقطوعات هزلية قصيرة وطويلة ، ومن أطرفها وأجمعها للهزؤ والسخرية قوله فى لحية بعض مهجوّيه[2] :

إن تَطُلْ لحيةٌ عليك وتَعْرُضْ ... فالمخالى معروفةٌ للحميرِ
علَّق اللهُ فى عِذاريْك مِخْـــلا ... ةً ولكنها بغير شعير
أرْع منها المُوسَى فإنك منها ... يشهد الله فى أثامٍ كبير
ما تَلَقَّاك كَوْسجٌ قَطُّ إلا ... جوَّر الله أيما تجوير
لحيَةٌ أُهملتْ فطالتْ وفاضتْ ... فإليها تشير كفُّ المشير

(١) الديوان ص١٤٦ .
(٢) ديوان المعانى للعسكرى ١ / ٢١٠ .

ما رأتها عينُ امرئٍ ما رأتها قَطُّ إلا أهلَّ بالتكبيرِ
روعةٌ تستخفُّه لم يُرَعْهَا من رأى وَجْهَ مُنْكرٍ ونكير
فاتَّق الله ذا الجلال وغيِّر مُنْكَرًا فيك ممكن التغيير
أو فقصِّرْ منها فحسبك منها نِصْفُ شِبْرٍ علامة التذكير
لو رأى مثلها النبيّ لأجرى فى لِحىَ الناس سُنَّةَ التقصير
واستحبَّ الإحفاءَ فيهنَّ والحلـ ـقَ مكان الإعفـــاء والتوفير

وقد استهل ابن الرومى المقطوعة بتشبيه تلك اللحية بمخلاة حمار ولكن بدون شعير ، ونصح صاحبها أن يجعل الموسى يرعاها ويأخذها من جميع أطرافها ، وجعل محافظته عليها إثمًا كبيراً فإن الكوسج خفيف اللحية إذا رآها نسب إلى الله الجور والظلم فى قسمة الأرزاق ، وقد طالت حتى غدت فرجة للرائحين والغادين يشيرون إليها بأكفهم وأصابعهم متعجبين ، بل إنهم ليصيحون الله أكبر ، للروعة الشديدة التى تأخذهم ، وإنها لأكثر هولا من وجه ملكى القبر : منكر ونكير ، ويدعوه أن يتقى الله ويغير هذا المنكر الذى يحمله على وجهه فى ذهابه وإيابه ، أو ليُقَصِّرْهَا ، فنصفُ شبر منها كاف على التذكير والرجولة ، ويقول إن الرسول عليه السلام لو رآها لأبدل السنَّة فلم يجعلها تطويل اللحى بل جعلها تقصيرَها ، بل لعله كان يجعل السنَّة قصَّها ومحوها محواً . وهو يشير فى البيت الأخير إلى الحديث النبوى : « احفوا الشوارب واعْفُوا اللِّحَى » . وكان كاتبٌ مسيحى للقاسم بن عبيد الله يسمى عمْراً كثيراً ما كان يحجبه ، فأصلاه ناراً حامية من أهاجيه[1]. وكان لا يزل يلمح العيوب الجسدية فى مهجويه ، عابثًا بهم عبثًا كله سخرية وفكاهة وتندير .

وكان ابن الرومى يجيد فن الرثاء ، بحكم قدرته على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر، وأيضًا فإنه كان يستشعر فى أعماقه حزنًا ممضًّا ، لأنه لا يأخذ حقوقه فى عصره بالقياس إلى غيره من الشعراء الذين يتفوق عليهم تفوقًا واضحًا ، فكان شعوره

(١) الديوان ص ٢٤٠ .

بالبؤس والحرمان يضاعف حزنه ، وكأنما الحياة كلها أمامه كانت أحزاناً ومآتم ، وتصادف أن مات له ثلاثة أبناء ، فبكاهم بكاء حارًّا ، ومرَّ بنا فى الفصل الماضى بكاؤه على ابنه الأوسط الذى مات منزوفًا وهو لا يزال فى المهد طفلا صبيًّا ، وقد نصب بقصيدته له مأتمًا كبيراً صوَّر فيه موته ونزيفه تصويراً محزنًا ، ثم بكاه بكاء مُرًّا . ومن قوله فى رثاء ابنه الثالث (١) :

أَبُنَىَّ إنك والعزاء معاً   بالأَمس لُفَّ عليكما كَفَنُ
ما فى النهار – وقد فقدتك – من   أَنس ولا فى الليل لى سكن
ماأَصبحتْ دنيايَ لى وطناً   بل حيث دارك عندىَ الوطن

وله مرثية فى أمه وأخرى فى أخيه محمد ، وبجانب ذلك نجد له عزاء من حين إلى حين ، وأسلفنا فى الفصل الماضى عزاءه فى ابنة على بن يحيى المنجم ، وله عزاء مشابه للمسيّبى الكاتب صديقه يعزيه عن ابنته بأن أحداً لن يخلد فى الدنيا ، وأن تلك إرادة الله ولا راد لمشيئته ، يقول(٢) :

أُصبتَ وما للعبد عن حكم ربه   محيصٌ وأَمرُ الله أَعلى وأَقْهَرُ
تعزَّيتَ عمن أَثمرتْك حياتُهُ   ووَشْكُ التعزى عن ثمارك أَجدرُ
فلا تهلكنْ حزناً على ابنة جنَّةٍ   غدتْ وهْى عند الله تحيا وتُحْبَرُ

وكان ما يَنى ينفذ إلى أخيلة ومعان طريفة حتى فى الموت ، ولعله أول من حبَّب الموت إلى غيره ، وكأنما كان يراه خلاصًا من حياته ومن الناس والأصدقاء الذين لا ينصفونه ، مما جعله يقول(٣) :

قد قلتُ إذ مدحوا الحياة فأَكثروا   للموت أَلف فضيلةٍ لا تُعْرَفُ
فيـــهِ أَمانُ لقائه بلقائه   وفـــراقُ كل معاشرٍ لا يُنْصف

وتعبيره عن أن الموت أمان للإنسان من خوفه المروَّع بلقائه من أدق ما يمكن ، وهو لا يبارَى فى النفوذ إلى كثير من المعانى والأحاسيس الدقيقة . وقد عرضنا فى

(١) الديوان ص ٣١ .
(٢) الديوان ص ١٠٤ .
(٣) ديوان المعانى ٣/١٧٢ .

obeikandi.com

الفصل الماضى مرثيته الملتهبة للبصرة حين حرقها الزنج ودمروها .

ويكثر العتاب فى ديوان ابن الرومى ، وقصيدته فى عتاب أبى القاسم التوّزى الشطرنجى مشهورة ، ومرّ بنا فى الفصل السالف قطعة بديعة منها فى وصف لعب أبى القاسم بالشطرنج ، وكان أمهر معاصريه فى لعبه ، غير أنا نقف الآن عند عتابه ، وقد عرضه عرضًا طويلا طريفًا ، إذ أخذ يذكره بما كان بينهما من صفاء ، ثم نشأت بعد ذلك هنوات لا يرضاها الصديق ، يقول :

كشفت منك حاجتى هنوات ... غُطِّيَتْ برهةً بحسن اللقاء
تركْتَنى ولم أكن سَيِّئَ الظَّـ ... ـنِّ أُسِيءُ الظنون بالأصدقاء
قلت لما بدتْ لعينىَّ شُنْعاً ... رُبَّ شوهاءَ فى حَشَا حسناء

ومضى فى حوار طويل بينه وبين تلك الهنوات الصغيرة ، يقول لها ليتنى لم أهتك ستركُنَّ وهن يقلن له بل لقد صنعت حسنًا ، إذ لو لم تفعل ذلك لظللت فى ظُلَمِ الشك من صاحبك ضالا حائراً ، وإن من الخير أن ننكشف لك حتى تعرف أمكنة الداء منه وتطبّ لها طبًّا يداويها دواء يشفى الصديق ، ويعتب على أبى القاسم أنه لم يُنِلْهُ نوالا ولا رَدًّا كريمًا ، ويظل يستعطفه طويلا . وقد أسلفنا فى الفصل الماضى قطعة بديعة له فى عتاب آل وهب .

ولابن الرومى غزل كثير يأتى به مستقلا تارة ، وتارة فى مقدمات قصائده ، وقلما يصوغه بصيغة المذكر مما يدل على أنه لم يكن صاحب غلمان مثل أبى نواس أو حتى مثل البحترى ، ومرت فى الفصل الماضى قطع مختلفة له فى وصف العناق وجمال العيون ومن بديع ماله فى وصف الشعر المسترسل حتى مواطئ القدم قوله[1] :

وفاحمٍ واردٍ يقبِّل مَمْـ ... ـشاكِ إذا اختال مسبلا غُدَرَهْ[2]
أقبل كالليل من مفارقه ... منحدرًا لا يذمّ مُنْحَـدَرَه
حتى تناهى إلى مواطئـه ... يلثم من كل موطئٍ عَفَـرَه[3]
كأنه عاشقٌ دنا شغفاً ... حتى قضى من حَبيبهِ وَطَرَه

(١) زهر الآداب ٣ / ١٦ .
(٢) الغدر : ذوائب الشعر وقطعه .
(٣) العفر : ظاهر التراب .

وهى صورة فريدة أسعفته بها قدرته على الاستقصاء فى وصف المحسوسات ، وكثيراً ما يفجأ قارئه بمثل هذه الصور النفيسة فى غزله ، وكأنما تحول عقله إلى ما يشبه كنزاً سائلا بالدرر ، فهو لا ينى يُطْرِف قارئه بمعنى مُسْتَحْدَث أو خيال مبتكر من مثل قوله(١) :

لا شىء إلا وفيه أَحسنه   فالعين منه إليه تنتقلُ
فوائد العين منه طارفةٌ   كأنما أُخرياتهــا الأولُ

فكل شىء وكل عضو فى صاحبته فتنة من الفتن حسنًا وجمالا ، فالعين ما تزال تنتقل ، وكلما تركت عضواً عادت إليه مفتونة ، حتى لكأنما انمحت فكرة الأُوَلِ وأعقابها ، فكل شىء من الأوَلِ ، وكل شىء لا يكاد النظر يفرغ منه حتى يعود إلى التملّى به . وله قافية نظمها فى جارية سوداء لممدوح له من البيت العباسى هو عبد الملك بن صالح ، وفيها يقول معللا علة حسنة لسوادها :

أكسبها الحب أنها صُبغت   صبغة حَبِّ القلوب والحدقِ

ويبدو أن بعض الجوارى عَبَثْنَ به وغَدَرْنه فى حبه ومَكَرْنَ مكراً خبيثًا ، ولذلك نراه فى نونيته المسماة بدار البطيخ يُصْدِر أحكامًا قاسية على النساء عامة ، من مثل قوله(٢) :

ومن عجائب ما يُمْنَى الرجــال به   مستضعفاتٌ لهم منهن أقرانُ
مناضلاتٌ بنَبْلٍ لا تقوم له   كتائبُ التُّرْك يُزْجيهنَّ خاقانُ
ولا يدُمْنَ على عَهْدٍ لمعتقدٍ   أَنَّى وهن — كما شُبِّهْنَ — بستانُ
يميل طورًا بحمل ثم يُعْدَمه   ويكتسى ثم يُلْفَى و هو عريانُ
يغدرن والغدر مقبوحٌ يزيِّنه   للغاويات وللغــاوين شيطانُ

وقد يكون دافع ابن الرومى إلى مثل هذه الأحكام القاسية على المرأة فى عصره شيوع دور القيان ببغداد وأن كثيرات من الجوارى لم تكن سيرتهن حسنة .

---

(١) ديوان المعانى للعسكرى ٢٣٢/١ .

(٢) الديوان ص ٢٠ وما بعدها .

obeikandi.com

وكانت الطبيعة تستأثر بكل مشاعره وعواطفه ، مما جعله يَـكْـلَـفُ بها كَـلَـفًا شديداً ، بل لقد تَـحَـوَّل عاشقًا لها عشقًا لا نألفه عند شعراء العربية من قبله ، فهو يعيش فيها مع كل حركة وكل همسة وكل وسوسة معيشة قوية حارة ، معيشة محب واله ، يرى الطبيعة من حوله ، وقد تحولت وجوهًا فاتنة ناطقة ، وكل شيء فيها يُغرْيه بالنظر واللمس والشم ، حتى انحس كأنما يفنى فى الطبيعة فناءَ أصحابِ المنزع الرومانسى الغربى ، وكأنما الحجب تُرْفَعُ بينه وبينها فى كل يوم فيزداد بها ولهاً ويزداد سروراً وغبطة ، وقد عرضنا فى الفصل الماضى منظر الغروب وتجسيده لوداع الشمس للطبيعة وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة . ونكتفى هنا بأن نسوق مثلا لتصويره الربيع ، يقول(١) :

ورياضٍ تـخايَلُ الأَرض فيها   خُيَلَاءَ الفتاة فى الأَبْرادِ
ذات وَشْيٍ تناسجته سوارٍ   لبقاتٌ بحَوْكه وغوادى(٢)
فهى تثنى على السماء ثناء   طيِّبَ النَّشْر شائعاً فى البلادِ
من نسيمٍ كأَن مسراه فى الأَر   واح مسرى الأَرواح فى الأَجسادِ
منظرٌ معجبٌ تحيَّةُ أَنْف   ريحُها ريح طيِّب الأَولادِ
تتداعى بها حمائمُ شَتَّى   كالبواكى وكالقِيان الشوادى
تتغنَّى القِرانُ منهن فى الأَيْ   كِ وتبكى الفِرادُ شَجْوَ الفراد

فالأرض تتراءى له كأنها فتاة حسناء تختال فى برود الربيع البهيجة ، ووشيها الذى نسجته السحب نسجًا بديعًا ، وهى تُثْنى على السماء ثناء عاطراً ، والنسيم يسرى فى الأرواح سريان الأرواح فى الأجساد ، وما أجمله من منظر وما أروعه من عطر للطبيعة يملأ النفس حنانًا وعطفًا كرائحة الأولاد النجباء ، والحمائم تتناغى بين باكيات وشاديات ، أما الشاديات فيتغنين لرفقائهن ، وأما الباكيات فمنفردات ليس لهن قرين ، وكأنهن يبكين الانفراد . والقطعة تعجُّ بالحياة ، بل قل إنها تعج بالحب حب شاعر أُغرم بالطبيعة وملأت قلبه براً وحنانًا ومودة. ولفت هذا الجانب

---

(١) الديوان ص ٧٥

(٢) تناسجته : اشتركت فى نسجه . السوارى والغوادى : السحب .

obeikandi.com

عند ابن الرومى العقاد، فقال إنه أثر من آثار وراثته اليونانية ، ولكن اليونان لمْ يُعرف عندهم شعر الطبيعة، هم ملأوها بالآلهة، ولكنهم لم يفصحوا عن مشاعرهم إزاءها على نحو ما نجد عند ابن الرومى ، وأوربا نفسها فى عصرها الكلاسيكى فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حين كانت تحاكى الآثار اليونانية ، لم يُعْرَفْ عندها هذا النوع من الشعر ، إنما عُرف فى العصر الرومانسى فى أثناء القرن التاسع عشر ، حين انفكَّت من محاكاة الآثار اليونانية[1] . على كل حال كان ابن الرومى يُشْغَفُ بالطبيعة ويَكْلَفُ بها كَلَفًا لم يعرف لشاعر قديم .

وجعلته قدرته على نقل المشاهد الحسية يَبْرع فى وصف مجالس الأنس وما يجرى فيها من خمر وسماع . وهو لا يتورط فى المجون والإثم تورط أبى نواس وأمثاله ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يحتسى الخمر ، فقد كان شربها شائعًا فى عصره ، ومرَّت بنا فى غير هذا الموضع الأبيات المشهورة التى يقول فيها إن أبا حنيفة أحلَّ النبيذ . ودعا الخمر فى بعض شعره رِيق الدنيا ، يقول :

فتًى هجر الدنيا وحرَّم رِيقَها ... وهل رِيقُها إلا الرَّحيقُ المبرَّدُ

وقد أكثر من وصف مجالس السماع ، وجعله ذلك يكثر من وصف المغنين والمغنيات ، وكانت أذنه مرهفة وشعوره حادًّا ، فإذا لم يقع المغنى أو المغنية من أذنه موقعًا حسنًا صبَّ عليهما شواظًا من هجائه، على نحو ما مرَّ بنا فى هجائه لشنطف، ولعل أروع تصوير لمغنية محسنة تصويره لغناء وَحيد ، وكانت فتنة صوتًا وحسنًا ، وفيها يقول[2] :

تتغنَّى كأنَّهـا لا تُغَنِّى ... من سكون الأوصال وهى تجيد

لا تراها هناك تجحظ عَيْنٌ ... لك منها ولا يَدُرُّ وَرِيدُ[3]

من هدوٍّ وليس فيه انقطاع ... وسُجُوٍّ وما به تبليد[4]

مَدَّ فى شَأْو صوتها نَفَسٌ كا ... فٍ كأنفاس عاشقيها مديد

---

(١) انظر فى مناقشة هذه المسألة كتابنا الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (طبع دار المعارف) ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٢) الديوان ص ٩٨

(٣) يدر : ينتفخ ويتوتر . الوريد : عرق فى العنق .

(٤) الهدو : انخفاض الصوت . السجو : مده . التبليد : التقطع .

واشتهر بإكثاره من وصف ألوان الطعام والفاكهة ، وقد ذكرنا له فى الفصل الماضى قطعاً مختلفة فى وصف دجاج مشوىّ ومرققات وقطائف وعنب رازقى ، وديوانه زاخر بأمثالها ، وهى أثر من آثار نهمه فى الطعام ، وأيضاً من آثار براعته فى وصف كل ما يشاهده ويقع عليه حسه ، وله قطعة معروفة فى وصف الرّقاق وأخرى فى وصف قالى الزلابية يقول فيها [١] :

كأنما زَيْتُه المقلىُّ حين بدا كالكيمياء التى قالوا ولم تصبِ
يُلْقِى العجين لُجَيْنًا من أنامله فيستحيل شبابيكاً من الذهب [٢]

وهذا الجانب عنده جعله قريباً من ذوق العامة ، وأدنى إلى أن يصبح شاعراً شعبيًّا ، ومن تتمة هذه الشعبية فيه أن نراه يصف الحمّالين والشوّائين ، كما يصف الثياب البالية ، وكان قد تعلق بوصفها الشاعر المعروف باسم الحمدونى ، فنزع منزعه فى هذا الجانب بمثل قوله [٣] :

معمَّرٌ قال نوحٌ حين أبصره إنا محيُّوك فاسْلَمْ أيُّها الطَّللُ
أميل فى الطُّرْقِ خوفاً من مزاحمة تهدُّه فكأنّى شاربٌ ثَمِلْ

وأكبر الظن أن هذا الجانب الشعبى هو الذى جعله يهتم بالزهاد والوعاظ ، وليس فى حياته ما يصله بالوعظ والزهد ، وقد ذكرنا له موعظة فى الفصل الماضى ، وكأنما كان يتغنى مشاعر الشعب فى وعظه وتصويره للزهاد . وحقًّا أن ديوانه يجرى فيه تشاؤم واسع ، ولكن التشاؤم شىء والزهد شىء آخر ، فالزهد انصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل ، والتشاؤم — وخاصة عند ابن الرومى — نقمة على فقدان المتاع بالحياة ، وهى نقمة صُبَّت على شاعر نابه امتاز بقلب ذكى وحس مرهف وشعور دقيق ، فمضى فى كثير من جوانب شعره يصور الحياة سوداء حالكة ، ويتخذها هى والناس وشرورهم وطباعهم موضوعاً لدرسه وشعره . وعلى نحو ما كانت لديه قدرة على وصف كل ما يقع عليه حسه بجميع جزئياته كانت لديه قدرة على النظرات الكلية الجامعة ، فإذا

---

(١) الديوان ص ٣٧١ .
(٢) اللجين : الفضة .
(٣) انظر مقطوعات أخرى فى الديوان ص ٣١٨ .

هو يضع لبعض الأخلاق الذميمة صوراً مجسمة كصورة المتكبر[١] والأكول[٢] والثقيل[٣]، وبالمثل الأخلاق المحمودة كالصبر والتجلد، وقد مثلنا فى الفصل الماضى لهما بقطعة من شعره.

وكان ابن الرومى لا يعود إلى أشعاره بتنقيح ولا تهذيب، وكان إذا نظم أكثر وامتد نفسه امتداداً بعيداً. فكان طبيعياً أن يكون فى أشعاره ما يهبط درجات عما حوله، ففيها المصقول وغير المصقول، وفيها ما يرتفع إلى الأفق الأعلى وما يدنو إلى الآفاق الدنيا، بحكم أنه لا يعاود عمله، ويؤكد ذلك ما يروى عن تلميذه أبى عثمان الناجم من أنه رآه ذات مرة قد غضب، فصنع قصيدة طويلة لساعته كلها هجاء، فسأله أين مسوَّدتها؟. فأجابه: هى هذه، فقال له الناجم: ما فيها حرف مصلح، فقال: قد استوت بديهتى وفكرتى فما أعمل شيئاً فأكاد أصلحه. وليس معنى ذلك أنه يوجد فى أشعاره غَثّ كثير، فقد تلافى ذلك عنده ما امتاز به من أفكار وأخيلة نادرة، وما كان يحرص عليه من بث الفنون الجديدة فى أشعاره وخاصة الجناس، وكانت له أذن موسيقية رائعة. وكل ذلك حمى الصياغة عنده من الهبوط عن المستوى الرفيع إلا ما كان يريد أن يقترب فيه من الذوق الشعبى، لشعبية كانت متأصلة فى ذات نفسه. والحق أنه كان شاعراً بارعاً، بل لا شك فى أنه أبرع شعراء العصر لما يحفل به ديوانه من الموضوعات والمعانى والأخيلة المبتكرة مما يملأ النفس إعجاباً متصلا به وبأشعاره.

٤

ابن المعتز[٤]

وُلد عبد الله لأبيه المعتز بسامرَّاء قبل مقتل جده المتوكل فى سنة ٢٤٧ للهجرة بأربعين يوماً، فلم يكد يستقبل الحياة حتى صُرِع جده هذا المصرع الخطير،

---

(١) الديوان ص ٩٥.
(٢) الديوان ص ١٧٥.
(٣) الديوان ص ٧٣.
(٤) انظر فى ابن المعتز وحياته وشعره كتاب الأوراق: أشعار أولاد الخلفاء للصولى ص ١٠٧ وما بعدها وكتاب الأغانى (طبعة دار الكتب المصرية) ١٠/٢٧٤ والفهرست ص ١٧٤ وتاريخ بغداد ١٠/٩٥ ومروج الذهب ٤/٢٠٣ والطبرى ١٠/١٤٠ ونزهة الألباء لابن الأنبارى وابن خلكان =

صرّعه جنده وقواده الأتراك الذين فَسَحَ لهم فى الحكم والسلطان والتسلط ، فإذا هم يسفكون دمه غير مراعين عَهْداً ولا ذِمَّة . وسرعان ما يتوفّى ابنه المنتصر الذى خلفه ، ويصبح الخلفاء لعبة فى أيديهم ، فيولّون المستعين ويخلعونه ويقتلونه ، ويولّون المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) وكان لا يزال فى نحو العشرين من عمره ، وكان جميل الوجه ، وكأنما ورث جمال أمه الرومية التى سماها المتوكل قبيحة لجمال صورتها ، من أسماء الأضداد ، وكان مرهف الحس رقيق الذوق دقيق المشاعر ، مما أنطقه بالشعر المصفّى . وكان يعكف على اللهو والصيد ، فمجالسه لا تزال غاصة بشارية وعَريب وزُنام وابن بنان وغير هؤلاء من المغنيات والمغنين ، ومواكبه لا تزال ذاهبة آيبة من الصيد . وفى مواضع مختلفة من كتاب الديارات للشابشتى نرى قصفه وشرابه وسماعه للغناء فى قصره وفى بعض الأديرة [١] ، ونطلع على جانب من ترفه فى قصريه « الزوّ » و « الكامل » بسامراء ، ومَرّ بنا وصف البحترى للقصر الأخير وبستانه الممتد أمامه ، ولعله نفس البستان الذى كان يزخر بالحيوانات ، والذى كان يتسلّى بالفرجة فيه هو وأصدقاؤه على السبع والفيل كيف يتواثبان [٢] .

وكانت أم عبد الله بدورها من الجوارى ، ولعلها كانت أيضًا رومية الأصل مثل جدته ، فقد كان جميل المحيّا ، وورث عن أبيه كل طباعه ، فهو مثله جميل السجايا رقيق المشاعر . وكان ذكى القلب صافى العقل ، فأضاف إلى ترفه الذى نشأ منغمسًا فيه إقبالا متصلا على الدرس منذ نعومة أظفاره ، حتى ليلفت ذلك البحترى ، وهو لا يزال فى التاسعة من عمره ، فيمدحه قائلا [٣] :

أَبا العباسِ بَرَّزْتَ على قَــوْم … لك آداباً وأَخلاقاً وتبريزا

فأَما حَلْبَةُ الشعر فتستولى … على السبق بها فَرْضاً وتمييزا

= وفوات الوفيات ١ / ٢٤١ ومرآة الجنان لليافعى ٢ /٢٢٥ وشذرات الذهب ٢ /٢٢١ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٦٤ وفى مواضع مختلفة وعبد الله بن المعتز العباسى لمحمد عبد العزيز الكفراوى (طبع مكتبة نهضة مصر) بالقاهرة وديوانه طبعة بيروت ، وهى التى نرجع إليها وطبعة القاهرة ، وطبع بعض المستشرقين منه جزءين فى إستانبول . وتوجد منه مخطوطة برواية الصولى بدار الكتب المصرية .

(١) الديارات ص ١١٠ ، ١٦٤ .

(٢) الديارات ص ١١١ .

(٣) ديوان البحترى ٢/ ١١١٩ .

وقد يكون فى ذلك مبالغة على عادة الشعراء فى المديح، لكن على كل حال فى البيتين وقصيدتهما ما يدل بوضوح على أن ابن المعتز كان يكبُّ على القراءة وأن موهبة الشعر بدأت تستيقظ فى نفسه فى هذه السنّ الصغيرة. ويبدو أن أباه كان معجبًا به إعجاباً شديداً مما جعله يضرب باسمه الدنانير. ويسجل ذلك البحترى فى مدحة[1] طويلة له، يصور فيها جمال طلعته وشمائله الكريمة، ثم يقول:

وأبهجنا ضَرْبُ الدنانير باسمِه وتقليده من أمرنا ما تقلَّدا

وفى الشطر الثانى ما يصور إرهاص البحترى للمعتز بأن يولىّ عبد الله العهد، ومضى يصرّح بذلك ويطالب به ويهتف فى وضوح. ونراه فى قصيدة[2] ثالثة يتشفع لعبد الله بأبيه كى يهب له من إقطاع أقطعه له ضيعة تجاور ضياعه بالشام، وفى ذلك يقول فى قصيدة رابعة[3]:

ومُلِّيتَ عبدَ الله إنَّ سَماحَهُ هو القَطْرُ فى إسْباله وأخو القَطْرِ
شفعتَ إليه بالإمام وإنما تَشَفَّعْتُ بالشمس اقتضاءً إلى البَدْرِ

ولم يلبث الدهر أن قلب ظهر المجن للمعتز وابنه، فإن جند الأتراك طالبوه فى السنة الرابعة من خلافته برواتبهم وكانت خزائن القصر خالية من المال، فاعتذر، ولم يقبلوا عذره، وظلوا يفاوضونه حتى قبلوا أن يدفع إليهم خمسين ألفًا، ولكنه لم يجدها، فصمموا على خلعه، وهجموا عليه وضربوه بالدبابيس، ثم جعلوه فى بيت أوصدوا بابه حتى مات بعد أن أشهدوا عليه أنه خلع نفسه. وصادروا أموال أمه قبيحة كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع، ونفوها إلى مكة ونفوا معها عبد الله ابنه وابنى عميه قُصَىّ بن المؤيد وعبد العزيز بن المعتمد. وهما محنتان قاسيتان أثَّرتَا فى نفس الصبى آثاراً بعيدة: محنته التى امتُحن بها فى أبيه الذى منحه الحياة والذى كان يغمره ببرّه وحنانه وعطفه، ومحنته بالنفى وعذابه ونكاله وعنائه، وما مرّ به فى أثناء ذلك من أمل ويأس ورجاء وقنوط، مع ما صَلِىَ به من حزن عميق على أبيه، مما ظل له أثر بعيد فى نفسه، وهو أثر يتراءى بوضوح فى أشعاره، إذ يُطالعنا

---

(١) الديوان ٢ / ٦٧٠.
(٢) الديوان، ٢ /١٣٠٩.
(٣) الديوان ٢ /١٠٠٧.

فيها دائمًا الإحساس بآلام الحياة وما تكتظ به من كوارث وفواجع ، كبَّرها فى نفسه وخياله ما كان ينعم به فى صباه من ترف وحياة لاهية لم تلبث أن حفَّتْ بها الدماء المسفوكة ، دماء أبيه ، كما حفَّ بها النفى والتشريد ، فإذا النعيم يصبح جحيمًا ، وينقضى عهده إلى غير مآب ، وفى ذلك يقول ابن المعتز باكيًا صباه بدموع غزار (١) :

لَهْفِى على دهر الصِّبا القصيرِ   وغُصْنه ذى الورَقِ النَّضيرِ
وسُكْرِهِ وذَنْبه المغفورِ   ومرَح القلوب فى الصُّدُورِ
وطول حَبْل الأَمَلِ المجرورِ   فى ظِلِّ عَيْشٍ غافلٍ غريرِ

ودار عام وتولَّى المعتمد الخلافة لسنة ٢٥٦ فأرسل فى طلبه وطلب جدته وابنى عمه وردَّهم إلى سامرَّاء ، وكانت شئون القصر أخذت تستقيم ، فلم يعد للترك تسلطهم ولا استطالتهم على الخلفاء ، إذ جعل المعتمد الأمر والنهى والسلطان لأخيه الموفق طلحة ، وكان من أحزم بنى العباس وأشجعهم وأنبغهم فى إدارة السياسة والحرب وهو الذى قضى على ثورة الزنج وثورة الصفّاريين كما أسلفنا فى غير هذا الموضع. فاطمأن الغلام المروَّع وأخذت جدته قبيحة تُعْنَى بتربيته ، وأحضرت له المعلمين فى الفقه والحديث والأدب واللغة ، من مثل محمد بن عمران والحسن العنزى الإخباريين ، ومحمد بن هبيرة صاحب الفراء ، ويبدو أنه كان يأتى المبرد وثعلبًا فى أثناء زياراتهما لسامراء قبل انتقاله ونزوله ببغداد لسنة ٢٧٦ . وفى المختار من شعر بشار أن ثعلبًا كان أحد مؤدبيه فقطعه وقتًا ، فكتب إليه من قصيدة طريفة (٢) :

يا فاتحاً لكل علم مُغْلَقِ   وصَيْرَفِيًّا عالمــاً بالمنطقِ
إنا على البعاد والتفرُّقِ   لنلتقى بالذكر إن لم نَلْتَقِ

وكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم (٣) . وأهم معلميه أحمد بن سعيد الدمشقى المحدّث الإخبارى ، ويُرْوَى أن البلاذرى المؤرخ سعى عند جدته كى يصبح من معلميه ومؤدبيه ، فغضب ابن سعيد ولزم بيته ، وكانت سن ابن المعتز

(١) ديوان المعانى ١٥٣/٢ .
(٢) المختار من شعر بشار (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٥٤ .
(٣) الفهرست ص ١٧٤ .

حينئذ ثلاثة عشر عامًا ، وعلم بغضب أستاذه فكتب إليه أبياتًا يترضاه بها ، وهي تصور ثقافته تصويراً دقيقاً ، إذ يخاطبه بقوله[1] :

أَصبحتَ يابن سعيدٍ حُزْتَ مكرمةً … عنها يقصِّر مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ
سَرْ بَاْبَنى حكمةً قد هذّبتْ شِيمَى … وأَجَّجَتْ غَرْبَ ذهْنى فهْوَ مُشْتَعِلُ
أَكون إن شئتُ قُسًّا فى خطابتهِ … أو حارثاً وهْوَ يوم الفخْر مُرْتَجِلُ
وإن أَشأْ فكزَيْدٍ فى فَرائضِهِ … أَو مثل نعمانَ ما ضاقتْ بِىَ الحِيَلُ
أَو الخليل عروضيًا أَخا فِطَنٍ … أَو الكسائىِّ نحويًّا له عِلَلُ
عُقْباك شكرٌ طويلٌ لا نفادَ لهُ … تَبْقَى مَعالِمُهُ ما أَطَّتِ الإبلُ[2]

وهو يقول إن ابن سعيد خرّجه خطيبًا فصيحًا لا يقل عن قُسّ فى خطابته التى اشتهر بها بين الجاهليين، كما لا يقل عن الشاعر الجاهلى الحارث بن حلزة فى شعره وبداهته ، ولا عن زيد بن ثابت فى عمله بالميراث ، ولا عن أبى حنيفة فى علمه بالفقه، ولا عن الخليل بن أحمد فى علمه بالعروض، ولا عن الكسائى فى النحو واستنباط علله . وهذه هى مواد ثقافته فى سن الثالثة عشرة، ولم يذكر بينها فلسفة ولا منطقًا ، غير أنه ينبغى أن نحذر التعميم فى الحكم على ثقافته مما قاله عن نفسه فى تلك السن المبكرة، ومن الطبيعى — وكان نهما بالقراءة — أن يكون قد اطلع على شىء من الفلسفة وقرأ بعض كتب الفلك والتنجيم ، ففى أشعاره إشارات لهما[3]، وإن كنا نظن ظنًّا أنه لم يلمّ بذلك فى مطالع حياته . ولعل من الطريف أن نجده يقول[4] :

ولا تفزعنْ من كل شىءٍ مفزِّعٍ … فما كل تربيع النجوم بضائرِ

وكأنه كان يتشكك فى حسابات المنجمين وما يزعمونه من طوالع السعد والنحس. ومضى يمنح أوقاته للشعر والأدب ،وكأنما قرر بينه وبين نفسه الانصراف عن السياسة وشئون السلطان ، فقد بلا منهما فى جده المتوكل وأبيه المعتز ما جعله يقرر فى حزم

---

(١) معجم الأدباء ١ / ١٣٣ .
(٢) أطت : أنّت تعباً أو حنينا .
(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السابعة) ص ٢٦٣ .
(٤) الديوان ص ٢٤٩ .

obeikandi.com

الفراغَ للحياة الأدبية ، وأنفق فى ذلك أعوامًا كثيرة . وكان يقرأ كتابات سابقيه ويفكر فيما يقرأ منها ناقداً محللا ، وما نصل إلى سنة ٢٧٤ للهجرة حتى نجده يصنِّف كتابه « البديع » محاولا أن يضع من جهة لأول مرة فنونه وضعًا علميا دقيقًا ، وأن يثبت من جهة ثانية أن هذه الفنون قديمة فى الأدب العربى وكل ما للمحدثين العباسيين منها إنما هو الإكثار ، أما بعد ذلك فهى منثورة فى القرآن الكريم والحديث النبوى وأشعار الجاهليين والإسلاميين . وألف كتبًا أدبية أخرى كثيرة مثل كتاب الزهر والرياض ومكاتبات الإخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب فصول التماثيل فى الشراب وآدابه ، وكتاب السرقات ، وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ذائع مشهور وهو يصور ثقافة واسعة بالشعر العباسى الحديث كما يصور نظرات نقدية طريفة وذوقًا مهذبًا صافيًا . وكان يُعْنَى منذ فواتح حياته بالغناء والموسيقى ، وفى ذلك يقول أبو الفرج الأصبهانى : « كان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها ، وله فى ذلك وفى غيره من الآداب كتب مشهورة ، ومراسلات جرتْ بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بنى حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه[1] » . ويسوق أبو الفرج رسالة لعبيد الله إلى ابن المعتز ، ومنها نعرف أنه كان يميل فى الغناء إلى التجديد ولا ينكر أن يغير الإنسان بعض نغم الغناء القديم ، ثم يورد أبو الفرج من صنعته بعض أصوات أو أدوار تدل فى وضوح على أنه استطاع أن يتخطى دَوْرَ المتاع بالغناء لعصره إلى دور الإنتاج فيه إنتاجًا ممتازاً جعل العصور تحمله من بعده ، وكثيراً ما كان يزوره بعض المغنين والمغنيات ويغنونه فيما يصنع من الشعر . ومن الجوارى اللائى كن يكثرن من الاختلاف إليه والغناء فى شعره زرياب وبنت الكُرَاعة وخزامى ، على نحو ما يحدثنا عنهن أبو الفرج فى ترجمته .

وكان ابن المعتز يأخذ بنصيب غير قليل من متاع الحياة [2] ، وكأنه ورث عن أبيه كل مزاجه ، أو قل هى حياة القصور المترفة التى تدفع من يعيشها إلى اللهو ، مما جعله يفتح بيته للندماء فى بعض الأيام وبعض الليالى يسمعون ويشربون ، وكان أكثرهم من الشعراء أمثال النميرى ، وبينهما مراسلات شعرية طريفة ، وعلى بن مهدى

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٦ .

(٢) الديارات ص ٧٢ .

الأصبهانى الكسروى وبينهما مكاتبات بالأشعار ومجاوبات[١] وجَحْظَة وهو الذى أعطاه لقبه الذى اشتهر به . وكان شغوفًا مثل أبيه بالصيد ، وسنعرض لبعض أشعاره فيه . وينبغى أن نلاحظ أن مجالسه لم تكن لهواً خالصًا ، فقد كان يختلف إليه نابهون كثيرون من علماء اللغة والأدب وفى مقدمتهم المبرد وثعلب أستاذاه وصديقاه ، ويقول الصولى فى ترجمته له بكتابه الأوراق : « كانت داره مَغاثًا لأهل الأدب وكان يجالسه منهم جماعة » .

ومرَّ بنا أن أباه وهبه إقطاعًا كبيراً بالشام ، ولا بد أن يكون قد وهبه إقطاعًا أو إقطاعات أخرى فى العراق ، ومن أجل ذلك كنا نخالف من زعموا أنه كان يعيش فى إقلال ، ثم كان عنده ما ورثه عن جدته قبيحة وإن كان القائد التركى صالح ابن وصيف صادر أموالها ، فقد كانت لها بقية عاشت منها حتى توفيت سنة ٢٦٤ . ولا بد أنه كان ينال راتبًا كثيراً أو قليلا من الدولة لعهد عمه المعتمد الذى امتد حتى سنة ٢٧٩ ، ويروى الصولى قصيدتين له مدحه بهما ، وفى إحداهما يقول[٢] :

أهلا وسهلا بالإمام ومرحباً لو أستطيع إلى اللقاء سبيلا

ولعل ابن المعتز نظم هذه القصيدة بعد أن ردَّ الموفق أخاه المعتمد عن الموصل إلى بغداد لسنة ٢٦٩ وكان قد ظن بأخيه الموفق الظنون وعزم على اللحاق بمصر . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن الناس ومعهم ابن المعتز كانوا يخشون حينئذ لقاء الخليفة خوفًا من غضب أخيه وبطشه . وفى أخبار ابن المعتز أنه كان يروى أشعار عمه المعتمد ، مما يدل على أنه كان كثير الاختلاف إلى مجالسه ، وكان عاكفًا على الملاذ والملاهى ، فكان طبيعيًّا أن يتصل الودّ بين العم وابن أخيه وخاصة إذا كان مثل ابن المعتز شاعراً وإخباريًّا ظريفًا . ونراه يسوق إلى عمه الموفق الذى أبلى بلاء عظيمًا فى محاربة الزنج والقضاء على صاحبهم قضاء مبرمًا غير مدحة ، ويبدو أنه

---

(١) معجم الشعراء ص ١٤٩ . الخلفاء ص ١٣١ أنها فى المعتضد .

(٢) الديوان ص ٣٧٦ وفى أشعار أولاد

أكثر حينئذ من تهانيه بظفره . من مثل قوله[١] :

ولما طغى أَمْرُ الدعىِّ رميتَهُ   بعَزْمٍ يردُّ السيف وهو كليل
وأعلمته كيف التصافح بالقَنَا   وكيف تروَّى البيض وهْى مُحول[٢]

ويتوفى الموفق فى سنة ٢٧٨ ويخلفه ابنه المعتضد وكان لا يقل شجاعة وحزماً عنه وكان عونه وظهيره فى حرب الزنج ، ويسلم عمه المعتمد مقاليد الأمور إليه ، ويتوفى سنة ٢٧٩ فيخلفه المعتضد ، وكان مهيباً شديد الوطأة ، فخافه قواد الترك ، وظلوا كما كانوا فى عهد أبيه خانعين . ويتحول بالخلافة إلى بغداد وتصبح حاضرة الدولة ، ونرى ابن المعتز يوجه إليه مدائح مختلفة يطلب فيها الإذن له بالتحول من سامراء إلى بغداد من من مثل قوله[٣] :

لعمرى لئن أمسى الإمامُ ببلدةٍ   وأنت بـأُخرى شائقُ القلب نازعُ
وما أنا فى الدنيا بشىءٍ أناله   سوى أن أرى وجه الخليفة قانع

ويأذن له المعتضد وينزل بغداد ، وتتحول داره إلى ندوة كبيرة للعلماء والأدباء ، ويُكثر المبرد من الاختلاف إليه فيها ، وتَروْى كتب الأدب بعض ما كان يدور بينهما من محاورات فى الشعر والشعراء[٤] . ويصبح من ندماء ابن عمه ورفقائه على الشراب والسماع إلى الغناء ، وتُقْبل الدنيا عليه ، وتنعقد صداقة بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد القديم وصديق أبيه ، ويهنئه باختيار ابنه محمد لشرطة بغداد قائلا[٥] :

فرحتُ بما أَضعافه دون قدركم   وقلت عسى قد هَبَّ من نومه الدَّهْرُ
فترجعَ فينـــا دولةٌ طاهريَّةٌ   كما بدأَتْ والأَمر من بعده الأَمر

وتتوثق صداقة ثانية بينه وبين عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد ، ويبدو أنها صداقة قديمة منذ وزر عبيد الله للمعتمد ، وهو يكثر من مدحه وشكره

---

(١) زهر الآداب للحصرى ٣ / ١٩٣ وفى أشعار أولاد الخلفاء ص ١٣١ أنها فى المعتضد .
(٢) البيض : السيوف — محول : مجدبة .
(٣) الديوان ص ٣٠٧ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٢٨ .
(٤) أخبار البحترى للصولى ص ١٦٤ .
(٥) أغانى ١٠ / ٢٨٦

obeikandl.com

على ما يصله به من أعطيات الدولة ، وتنشأ بينه وبين ابنه القاسم الذى وزر بعده صداقة ثالثة ومودة أكيدة ، وفى ذلك يقول منوّهًا بتلك الأسرة[١] :

لآل سليمان بن وهبٍ صنائعٌ إلىَّ ومعروف لدىَّ مُقدَّمَا
همُ علَّموا الأيام كيف تبرُّنى وهم غسلوا عن ثوب والدىَ الدّما

ويتوفَّى المعتضد سنة ٢٨٩ ، وكان ابنه المكتفى غائبًا ، ويُضْطر رئيس الحرس مؤنس إلى حبس جماعة من وجوه العباسيين حتى تؤخذ البيعة للمكتفى ، وتمضى بسلام ، ويَسْلك فيهم ابن المعتز ، ونراه يجأر إلى القاسم بالشكوى من هذا الحبس الاضطرارى وسرعان ما يَرُدُّ إليه القاسم حريته ، كما يرد إليه أعطياته ويوالى له العطاء ، فيُكْثر ابن المعتز من مدحه ، معترفًا له بصنيعه من مثل قوله[٢] :

أصلح بينى وبين دهرى وقام بينى وبين حَتْفِى

ولا يلبث القاسم أن يلبى نداء ربه لسنة ٢٩١ ويظل المكتفى يفسح لابن المعتز فى مجالسه ، وابن المعتز يكثر من مدائحه ، وينوه بانتصارات جيوشه على قرامطة الشام وزعيمهم الحسين بن زَكْرَوَيْهِ القرمطى المعروف بصاحب الشامة ، ويُنادمه ويحضر مجالس سماعه وشرابه .

ويتوفَّى المكتفى لسنة ٢٩٥ للهجرة ويتولى الخلافة من بعده ابنه المقتدر وسنه لا تتجاوز الثالثة عشرة ، فيكثر اللغط حوله ويتكلم الناس فى شأنه ويقولون كيف يتولى الخلافة من لم يبلغ الحُلُمَ ، كما يقول كثيرون ينبغى خلعه. وتدخل سنة ٢٩٦ وما يوافى شهر ربيع الأول حتى يزداد اللغط والكلام لاستيلاء أمه شغب وقهرمانتها على الحكم كما مر بنا فى غير هذا الموضع ولقصوره الواضح عن تدبيره شئون الخلافة . وفى يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول اجتمعت جماعة كبيرة من القواد والقضاة واتفقت على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز وبايعته فى اليوم التالى[٣] ، وكان الرأس المدبر لذلك محمد بن داود بن الجراح الكاتب ،

---

(١) مروج الذهب ص ٢٠٤ .
(٢) الديوان ص ٣١٩ .
(٣) انظر فى بيعة ابن المعتز ومقتله الطبرى ١٠ / ١٤٠ والنجوم الزاهرة ٣/ ١٦٤ وذيل زهر الآداب ص ٢٠٤ .

وقلّده ابن المعتز الوزارة وتكلم فى المقتدر قائلا : إنه لم يبلغ الحلم وإنه لا تصح للناس صلاة معه ولا حج ولا غزو وقد آن للحق أن يتضح وللباطل أن يفتضح . ولم يكد يمر يوم على هذه البيعة حتى هبَّ مؤنس الخادم فى جند كثيرين فنقضها وجدَّد للناس بيعة المقتدر وأخرج لهم الأموال وزاد فى الأعطية . ولم يبق مع ابن المعتز أحد فهرب إلى دار ابن الجصاص تاجر الجواهر المشهور وقبض عليه مؤنس وقتله ، وبذلك لم تتم له الخلافة إلا لمدة يوم وليلة ، وقيل بل لمدة نصف نهار فحسب . وما كان أحراه أن يبتعد عنها ، متعظًا بما أصاب أباه منها ، ولكن النفس أمارة بالسوء .

ولعل فيما سبق ما يوضح العناصر التى كونت شخصية ابن المعتز الأدبية ، فهو عربى عباسى يعتز بعروبته وأسرته ، وُلد فى القصر العباسى وفى كل ما انبثّ فيه من لَهو وطرب ، على نحو ما هو معروف عن آبائه : الرشيد والمتوكل والمعتز ، إذ كانوا يفرغون للهوهم ومتاعهم كلما أتيح لهم الفراغ ، وقد يكون فى ذلك بعض البواعث عنده على الإحساس المادى للأشياء ، أو قل على وصفها وصفاً ماديًّا ، إذ كان هذا الوصف هو الذى يلائم مزاجه المترف ، كما كان يلائم عقله الذى يعيش فى النعيم فلا يستطيع أن يتعمق الأشياء ، وإنما يقف عند ظاهرها الحسى المكشوف ، وقديمًا أشار ابن الرومى إلى تأثير بيئته المترفة فى شعره ، وإن كانت إشارته من طرف آخر ولكنه يلتقى بما قدمنا ، فقد سأله شخص : لِمَ لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال له : أنشدْنى شيئًا من شعره أعجز عن مثله ، فأنشده وصف ابن المعتز للهلال :

انْظُرْ إليه كَزَوْرَقٍ من فِضَّةٍ ... قد أَثقلتْه حمولةٌ من عَنْبَرِ

فقال ابن الرومى له : زِدْنى ، فأنشده :

كأَن آذَرْيُونَهـا ... والشمسُ فيه كاليَهْ (١)
مداهنٌ من ذهب ... فيها بقايا غاليَهْ (٢)

وصاح ابن الرومى : واغَوْثاه ! لا يُكلّف الله نفسًا إلا وُسْعها ، ذلك إنما

(١) الآذريون : زهر أصفر فى وسطه حمل أسود.

(٢) الغالية : المسك ، وهو أسود.

obeikandi.com

يصف ماعون بيته ، لأنه ابن الخلفاء وأنا مشغول بالتصرف فى الشعر وطلب الرزق به ، أمدح هذا مرَّة وأهجو هذا كرَّة . وأعاتب هذا تارة وأستعطف هذا طوراً[١] .

وابن الرومى يلاحظ التأثير المادى المترف للبيئة على ابن المعتز . وعنصر آخر اشترك فى تكوين شخصيته الأدبية بقوة ، وهو عنصر ثقافته العربية الإسلامية ، وقد جعله ذلك أقرب إلى ذوق المحافظين منه إلى ذوق المجددين ، حتى إذا انقسمت بيئات النقاد فى عصره إلى مجددين مسرفين فى التأثر بمقاييس البلاغة اليونانية وتحكيمها فى الشعر العربى من جماعة المترجمين ومن التف حولهم ، ومحافظين مسرفين فى رفض هذه المقاييس والتأثر بالمقاييس العربية الخالصة من جماعة اللغويين أمثال ثعلب والمبرد والبحترى من الشعراء ، ومعتدلين يتأثرون الضربين من المقاييس دون إفناء الشخصية الأدبية العربية فى المقاييس الأجنبية من أمثال أبى تمام وابن الرومى وجدناه يأخذ صف المحافظين لتعمق إحساسه بعروبته وتغلغل الثقافة العربية الإسلامية فى نفسه ، ويصرّح بذلك فى كتابه البديع الذى أنشأه ليثبت أن كل ما استحدثه العباسيون المستظهرون للثقافة اليونانية الفلسفية ليس محدثاً فى حقيقته ، بل هو يستمد من أصول قديمة فى الشعر الجاهلى والإسلامى والقرآن الكريم والحديث النبوى . وخَصَّ أبا تمام برسالة احتفظ بها فى ترجمته كتاب الموشح للمرزبانى ، وهى تحمل كل الأسس التى كَوَّن منها الآمدى حملته على أبى تمام . ومعنى ذلك أنه على الرغم من ذوقه المرهف وحسه الرقيق كان ينحو نحو المحافظين فى فهم الشعر ونقده ونظمه . وكتابه « طبقات الشعراء المحدثين » ، يدل على ثقافة واسعة بالشعر العباسى ولكنه استعان بتلك الثقافة نفسها على تأكيد الاتجاه المحافظ عنده ؛ إذ سخرّها كما يتضح فى كتابه « البديع » لإثبات أن العباسيين لم يأتوا بشىء ذى بال ، وأن كنوز الشعر العربى القديم لا تزال مفتوحة على مصاريعها ليشتق منها العباسيون كل بارع طريف .

ولا بد أن نلاحظ بجانب ذلك مؤثراً نفسيًّا أثر فيه وفى شخصيته وشعره آثاراً عميقة ، ونقصد به مقتل أبيه وجده من قبله ، مما آذى نفسه إيذاء شديداً ، إذ نشأ لا يعرف الأمن ولا اطمئنان القلب ، وظل يرافقه هذا الإحساس طوال حياته ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ٩٦ .

إذ يجلل شعره يأس عميق، وحقاً كان يُكِبُّ كثيراً على اللهو يُغْرق فيه أحزانه، ولكنها كانت أعظم من أن تغرق أو تنمحى من نفسه، ولعل ذلك ما جعله يكثر من الفخر بشجاعته، وهو يخاف الترك وغير الترك ويتملق عمومته وأبناءهم خوفاً على حياته وإيثاراً لعافيته.

وتلك هى مكونات شخصيته، بيئة مترفة ينغمس مَنْ فيها فى ضروب عدة من اللهو والمتاع بالحياة، وثقافة عربية إسلامية محافظة، وأحداث خطيرة جعلت الشر يلمّ به مبكراً، وتدلهم من حوله الخطوب، فيفكر فى الحياة والموت وما فى الدنيا من بؤس وآلام، وكأنما كُتب عليه ألا يشرب كئوس الترف واللهو صافية، فدائماً أو قل كثيراً ما تمتزج بها صور من الضيق بالحياة وما فيها من شر ونُكْر وما ينتظر الإنسان من مصيره المحتوم، وابن المعتز مع ذلك كله غَزِل ظريف حلو الدعابة جميل المحضر يألفه كثير من الأدباء.

ويبدو أن أكبر شاعر محدث كان يعجب به هو البحترى، فقد رُوِىَ عنه أنه قال: كان مما حبّب الشعر إلىّ أنى سمعت البحترى يُنْشد الماضى (يريد أباه المعتز) شعراً تشوّقه الناس واستحسنوه ووصفوه، تصرّف فيه بغزل ووصف ومدح وشكر، وعدّد أصناف ما أخذ، وطلب خاتمَ ياقوتٍ، وهو عندى من أحسن شعره، وهو:

بودِّىَ لو يَهْوَى العَذولُ ويَعْشَقُ فيعلم أسباب الهوى كيف تَعْلَقُ [1]

والبحترى يستهل القصيدة بغزل ملىء بالشوق إلى علوة صاحبته الحلبية، ويصف طيفها الذى ألمّ به فى حلمه ولهفته على لقائها، وعناقها وصبابته بها ودموعهما وقبلاتهما والتصاق خددوهما حين يلتقيان، حتى ليقول:

فلو فهم الناسُ التَّلاقى وحُسْنَهُ لحُبِّبَ من أجـل التلاقى التفَرُّقُ

ويُفيض فى مديح المعتز وما أضفى عليه من عطايا، ويستوهبه فى رقة ولطف خاتماً. ويلفتنا إعجاب ابن المعتز بهذه القصيدة التى أنشدها البحترى أباه وسنه

(١) أخبار البحترى ص ١٠٨ والتحف والهدايا للخالديين نشر الدكتور سامى الدهان ص ٧٣ وانظر الديوان ٣ / ١٥٣٤

لا تتجاوز التاسعة ، وتذوقه لها فى هذه السن الباكرة يدل ذلك على أنه كان قد حفظ كثيراً من الشعر ، حتى تكوَّن له ذوق يستطيع به أن يفقه ما فى الشعر من جمال . ومرَّ بنا وصف البحترى له فى حياة أبيه بأنه يستولى على حلبة الشعر مما يدل على أن الشعر سال على لسانه وهو بعد فى الثامنة أو التاسعة من حياته .

ولم يكن البحترى وحده أستاذه فى مطالع حياته ، فأهم منه أبوه المعتز إذ كان شاعراً بارعًا ، ولو قُدِّر له أن تمتد حياته لشغل النقاد بأشعاره على نحو ما شغلهم ابنه ، وكان ينفق كثيراً من أوقاته فى اللهو والمجون والصيد ، وينظم فى ذلك كله أشعاره ويطلب إلى هذا المغنى أو ذاك أن يتغنى فيما ينظم ، وكل ذلك ورثه ابن المعتز عن أبيه . وبذلك كان له فى أوائل حياته أستاذان : أستاذ من بيته هو أبوه الذى كان يدرِّبه على نظم الشعر ، وأستاذ من غير بيته هو البحترى .

ومن المحقق أن نسيج صياغته لا يرتفع فى متانته وجزالته إلى مرتبة صياغة البحترى ، حقًّا كثيراً ما يرتفع ، ولكنه قد يهبط درجات عن صياغته الجزلة الرصينة ، مما جعل كثيرين فى عصره وبعد عصره يحملون عليه ، وتصدى لهم أبو الفرج ملوِّحًا فى وجوههم بقوله : « شعره إن كان فيه رِقَّة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفةً من أشعار الملوك فى جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبَّه فيها بفحول الجاهلية ، فليس يمكن واصفًا لصَبُوح فى مجلس شَكِلٍ ظريف بين ندامى وقيان على ميادين من النَّوْرِ والبَنَفْسَج والنَّرْجس ومنضود من أمثال ذلك . . . أن يعدل عما يشبهه من الكلام السَّبْط (السهل) الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جَعْد الكلام ووَحْشِيِّه وإلى وصف البيد والمهامه والظَّبْى والظَّلِيم والناقة والجمل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ، ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيءٌ ، ولا أن يُغْمَط حقُّه كلَّه إذا أحسن الكثير وتوسَّط فى البعض وقصَّر فى اليسير ويُنْسب إلى التقصير فى الجميع لنشر المقابح وطيِّ المحاسن . فلو شاء أن يفعل هذا كلُّ أحد بمن تقدَّم لوجد مَسَاغًا[1] » . وأبو الفرج بذلك أنصف ابن المعتز ، ووضعه فى مكانه الصحيح ، فهو فى أكثر شعره محسن ، وهو فى بعضه متوسط الإجادة ، وفى اليسير

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٤

منه مقصّر ، وأكبر الظن أن هذا اليسير من شعر الارتجال إنما كان فى أثناء سمره أو فى أثناء سماعه للغناء وشربه. على أنه لا بد أن نشير إلى مهارته فى الغناء والموسيقى وأن هذه المهارة جعلته من أصحاب الآذان الدقيقة التى تزن جرس الكلام ، ولذلك كنا نحس عنده دائماً بأنه لا يهمل الأسماع فى شعره ، إذ كان يحاول أن يلذّها بأنغامه وألحانه . وظاهرة ثانية فى أشعاره هى عنايته فيها بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق وهى ظاهرة طبيعية ، إذ كتب فى هذه الفنون كتابه « البديع » ونوّه بها ، غير أنه لم يفرط فى الجناس والطباق إفراطاً بعيداً ، وقد عاب أبا تمام بذلك فى كتابه ، لأنه يخرج فيه على طريقة القدماء . والمحافظون من أمثاله وأمثال البحترى كانوا يوازنون بين البديع المستحدث وصوره عند القدماء ، فلم يكونوا يُسْرفون فيه مثل أبى تمام ومسلم ابن الوليد .

ولعل من الواجب أن نستعرض فنون الشعر عنده ، لتتضح لنا شاعريته ، وأول ما نقف عنده من تلك الفنون المديح ، ومرّ بنا أنه مدح من الخلفاء المعتمد والمعتضد كما مدح عمه الموفق البطل المظفر ، ونحس ببهجة حقيقية ومشاعر صادقة فى مديحه لابن عمه المعتضد ، أما مديحه فى غيره ففاتر ، وكان المعتضد كما أسلفنا بطلا مغواراً واستطاع — كما استطاع أبوه الموفق — أن يخضد شوكة الترك ، بل أن يقلم أظفارهم ، وكأنما كان يشفى غليل ابن المعتز وضغنه القديم عليهم ، إذ هم قتلة أبيه وسافكو دمه ، وليس ذلك فحسب هو الذى جعل المعتضد يقرب من نفسه ، فقد اتخذه نديماً وجليساً وتوالت عطاياه عليه ، فكان إذا مدحه انبعث فى مديحه عن عاطفة صادقة حارة ، وربما كانت خير مدائحه فيه رائيته التى يستهلّها بقوله[1] :

سلمتَ — أمير المومنين — على الدَّهْر ... ولا زلتَ فينا باقياً واسعَ العُمْر
حللت الثريّا خير دارٍ ومنزلٍ ... فلا زال معموراً وبورك من قَصْرِ
فليس له فيما بَنَى الناسُ مشبهٌ ... ولا ما بناه الجنُّ فى سالف الدَّهْرِ

والثريا مجموعة من الدور والقصور بناها المعتضد ، ويقال — كما مر بنا فى غير

---

(١) الديوان ص ٢١٥ .

هذا الموضع — إنه أنفق عليها أربعمائة ألف دينار وإنها كانت تمتد نحو ثلاثة فراسخ ، ومن حولها البساتين والرياض ، وقد صوَّرها ابن المعتز تصويراً رائعًا ، إذ يقول فى نفس القصيدة :

وأنهارُ ماءٍ كالسلاسل فُجِّرَتْ لتُرْضِعَ أولادَ الرياحين والزهر
جِنانٌ وأشجارٌ تلاقت غصونُها فأَوْرَقْنَ بالأثمار والورق الخُضْرِ
تَرى الطير فى أغصانهنَّ هواتفاً تَنَقَّلُ من وَكْرٍ لهنَّ إلى وَكْرِ

ويتحدث عن بأس المعتضد وجراءته وأنه يفوق فيهما ليث الغاب الذى يجرُّ إلى أشباله كل ليلة ذبيحة وحْش أو ذبيحًا من البشر ، والذى ما يزال يُفْزِع الناس بزئيره وبمن يفترس منهم ويَقْضمه قضمًا . وكان المعتضد حقًّا شجاعًا شجاعة خارقة ، ويصور ابن المعتز ما بسط فى البلاد من عدل ومن رفق بالعباد وجبروت شديد بمثل قوله فى القصيدة :

حكمتَ بعَدْلٍ لم يَرَ الناسُ مِثْلَهُ وداويتَ بالرِّفق الجُمُوحَ وبالقهر

وليس فى أشعاره مديح أو تهنئات لولاة أو وزراء سوى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وعبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد وابنه القاسم كما أسلفنا ، وخير مدائحه فيهم جميعًا ما مدح به عبيد الله بن سليمان بن وهب ،وهو على كل حال لا يبالغ فى إطرائه له على عادة الشعراء المتكسبين بأشعارهم ، إنما هى أبيات ينفث بها صدره من مثل قوله[1] :

أيا موصل النُّعْمَى على كل حالةٍ إلىَّ قريباً كنتَ أو نازحَ الدَّارِ
كما يلحق الغيثُ البلاد بِسَيْلِهِ وإن جاد فى أرضٍ سواها بأمطارِ
لقد عمر الله الوزارةَ باسمه وردَّ إليها أهلها بعد إقْفارِ
وكانتْ زماناً لا يَقِرُّ قرارُها فلاقتْ نصابا ثابتًا غير خَوَّارِ

---

(١) الديوان ص ٢١٧ .

وفى ديوانه وبين أشعاره مراث قليلة وأهمها ما نظمه فى ممدوحيه السالفين وخاصة المعتضد صديقه فقد حزن عليه حزنًا شديداً ، إذ أحسّ كأنما انهار ركن العباسيين الوطيد وانقض من أساسه ، كما أحسّ أن أيام أنسه عادت ظلامًا ، فقد طوت المنية صديقه الحميم ، وطار قلبه فزعًا ، واسودّت الدنيا من حوله ، وقد مضى يرثيه ويتفجع عليه وعلى دولته وما بذله فى حمايتها ووقايتها من جهد جهيد وبأس له شديد ، يقول والدموع تنهمر من عينيه وتكاد تخنقه خنقًا[١] :

يا ساكنَ القبر فى غَبْراء مظلمةٍ ... بالطاهريَّة مُقْصَى الدَّار منفردا[٢]

أين الجيوش التى قد كنت تَسْحَبُها ... أين الكنوز التى لم تُحْصِها عَدَدَا

أين السرير الذى قد كنت تملؤه ... مهابةً ، مَنْ رأتْه عينُه ارتَعَدَا

أين الرِّماح التى غَذَّيْتَها مُهَجًا ... مُذْ مِتَّ ما وردتْ قلباً ولا كبدا

ويتحسر على قصره الثريا ووصائفه وملاهيه، وكأنما أصبح طللا مهجوراً ، ولا أثر ولاعين ، كأنما لم يكن به المعتضد يومًا . ويحزن حين توفى قبله وزيره عبيد الله ابن سليمان بن وهب ، ولكنه لا ينظم فيه قصائد إنما ينظم أبياتًا قليلة يبكى فيها قدرته الكتابية أو قدرته السياسية فى الحكم والتدبير من مثل قوله[٣] :

هذا أبو القاسم فى نَعْشِهِ ... قوموا انظروا كيف تسير الجبالْ

يا ناصر الملك بآرائِهِ ... بعدك للمُلْك ليالٍ طِوَالْ

وطبيعى ألا نجد عند ابن المعتز هجاء، فقد كان يرتفع بنفسه عن هذا الفن الذى يستحيل فى أيدى الشعراء سهامًا يسددونها إلى خصومهم ، ولم يكن له خصوم ، ولا كان يكنّ لأحد خصومة إلا ما قد يقوله تندُّراً ودعابة من مثل قوله لعلى بن بسام هجّاء عصره[٤] :

يا قَذًى فى العيون يا حرقةً بيـ ... ـنَ التراقى حزازةً فى الفؤادِ

يا طلوع العذول ما بين إلفٍ ... يا غريماً وافى على ميعادِ

---

(١) النجوم الزاهرة ٣ / ١٢٧ .

(٢) الطاهرية : الدار التى دفن بها المعتضد غربى بغداد .

(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

(٤) ذيل زهر الآداب ص ١٨١ .

يا ركودًا فى يوم غيم وصيفٍ　　يا وجوه التجار يومَ الكسادِ
خلِّ عنا فإنما أنتْ فينا　　واو عمرو أو كالحديث المعاد

ويُكثر ابن المعتز فى شعره من الفخر بجوده وشجاعته ومضائه فى الحروب وفروسيته ، وهو يحاكى فى ذلك القدماء فى حماستهم ، فهو فخر مصطنع متكلَّف فى جمهوره ، ويفخر طويلا بأسرته وبجده العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم وبلائه فى موقعة حنين ، وبشجاعة آبائه وعمومته وبلاغتهم ، وفى ذلك يقول[١] :

إنا لننتاب العُداة وإن نـأَوا　　ونَهُزُّ أَحشاء البلاد جموعا
ونقول فوق أَسرَّةٍ ومنابرٍ　　عجباً من القول المصيب بديعا
قومٌ إذا غضبوا على أَعدائهم　　جَرُّوا الحديد أَزِجَّةً ودروعا
وكأَن أيدينا تنفِّر عنهمُ　　طيرًا على الأَبدان كنَّ وقوعا

والصورة الأخيرة بديعة ، فهو يتصور رءوس الأعداء كأنها طير يتطاير بالسيوف مزايلا لمكانه من أبدانهن . ويمتزج الفخر عنده بشكوى كثيرة ، وهى شكوى مردُّها إلى ما كان يتعمق نفسه من حزن وألم منذ ألمت به محنته فى مقتل أبيه ، على نحو ما مرَّ بنا آنفـًا ، فقد خلـَّفت هذه المحنة فى نفسه ضيقـًا شديداً ولعل ذلك ما جعله يشكو من إخوانه أحيانـًا .

وكان كثيراً ما يوجه فخره بأسرته إلى العلويين ، مبينـًا أن بيته أحق بالخلافة من بيتهم ، وقد ظلت ثوراتهم مشتعلة لا تخمد طوال عصره ، مما جعله يكثر من وعيدهم وتهديدهم ، مذكراً لهم بأن بيته هو الذى استطاع أن يثأر لهم من الأمويين قتلة الحسين وزيد حفيده[٢] ، ويحاول فى مقطوعات وقصائد مختلفة أن يستلَّ البغض والإحَن من نفوسهم على شاكلة قوله[٣] :

بنى عَمِّنا عودوا · نَعُدْ لمودَّةٍ　　فإنَّا إلى الحسنى سِراعُ التعطُّفِ
لقد بلغ الشيطان من آل هاشمٍ　　مبالغَه من قبلُ فى آل يوسف

---

(١) الديوان ص ٣٠٠ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٦٥ .
(٢) الديوان ص ٥٠ .
(٣) الديوان ص ٣٢٧ .

فهم فى رأيه بيت واحد وإخوة وينبغى أن يتحابوا لا أن يتباغضوا ويتقاطعوا كما حدث بين إخوة يوسف عليه السلام وبينه ، حتى باعوه لسيَّارة بثمن بَخْس دراهمَ معدودة . ويبدو أن بعض معاصريه لامه على ما يوجه للعلويين من لوم وأشاعوا أنه يسب على بن أبى طالب، فنظم قصيدة طويلة فى مديحه والثناء عليه ، يقول فى مطالعها[1] :

أآكل لحمى وأحْسُو دمى فيا قومِ للعجب الأعجب[2]
علىٌّ يظنّون بى بُغْضَهُ فهَلاَّ سوى الكفر ظَنّوه بى

ومضى يقول إن الذى يُشيع ذلك هم القرامطة الذين حادوا عن جادَّة الدين باسم التشيع لعلى وهو منهم برىء وفضله لا ينكره أحد ، وأخذ يصور بسالته وبلاغته وأخوَّته للرسول عليه السلام ونفوذ بصيرته فى الحكم والقضاء وزواجه من السيدة فاطمة بنت الرسول ، وسَمَّاه بحر العلوم ، وذكر مواقفه العظيمة، وأشاد بالحسن والحسين وما كان من مقتل الأخير بيد الأمويين الغاشمة ، وبكاء العباسيين عليه وأخذهم لثأره . ولا بد أن نفصل بين شعر ابن المعتز الموجَّه إلى العلويين ، والآخر الموجه إلى القرامطة والروافض، فهو فى الأول يغلب عليه الاعتدال والميل إلى الإنصاف أما فى الثانى فيملؤه بإنذارات وتهديدات شديدة ، مع ما يسمهم به من الإلحاد والكفر والزندقة .

وتلقانا فى ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة ، ولكنها لا تنبئ عن حب حقيقى كان يكتوى بناره ، فهى مقطوعات وقد تكون استهلالات لقصائد ، لا تصدر عن وجد شديد ، وإنما تصدر غالبًا عن ود ، وكأن مثله من أبناء القصور لا يستطيع الحب أن يتعمقه ، ولذلك كنا نفقد عنده الإلحاح فى الطلب والأمل والشوق المبرح والتضرع الحار، وكل ما نجد إنما هو حب الشباب المترف الذى لا ينبع من أعماق النفس والقلب ، أو قل هى أبيات ينظمها فيمن كن يغشين مجالسه من الجوارى أمثال نشر وشِرَّة على سبيل الدعابة من مثل قوله[3] :

---

(١) الديوان ص ٦٧ .
(٢) أحسو : أشرب .
(٣) الديوان ص ٥٢ وأشعار أولاد الخلفا ص ٢٢١ والأغانى ١٠ — ٢٧٨ .

وابلائى من محضر ومغيبٍ وحبيب منى بعيد قريب
لم تَرِدْ ماءَ وَجْهه العينُ إلا شَرِقَتْ قبل رِيِّها برقيبِ

وقوله [١] :

زاحم كُمِّى كُمَّهُ فالْتَوَيَا وافق قلبي قلبه فاستويا
وطالما ذاقا الهوى فاكتويا يا قُرَّةَ العين وياهمى ويا

وهى أبيات لا تصور عذاباً فى الحب ولا ألماً من ناره المحرقة، إنما هى أقرب ما تكون إلى الدعابة ، وختم البيت الرابع بقوله : « ويا » كما يقول الناس : يا أختى ويا ويا مستغنين بذلك عن الشرح . وقد تحولت هذه الصورة من التعبير فيما بعد إلى لون من ألوان البديع سمَّاه المتأخرون باسم الاكتفاء . واقرأ فى ابن المعتز فإنك لن تقف على حب لاهب ، إنما تقف على دعابات وصور وفَنٍّ من مثل قوله [٢] :

تقول العاذلات تعزَّ عنها واطفِ لهيبَ قلبك بالسُّلُوِّ
وكيف وقُبْلَةٌ منها اختلاساً ألذُّ من الشماتة بالعدوِّ

وقوله [٣] :

إذا اجتنى وَرْدَةً من خدِّها فمهُ تكوَّنتْ تحتها أخرى من الخَجلِ

وكان — كما أسلفنا — يُنْفق على شاكلة أبناء القصور — كثيراً من أوقاته فى اللهو والخمر ، وديوانه طافح بكئوسها ودنانها وسُقَاتها وأديرتها ، فهو لا يشربها فى بيته ومجالسه مع أصدقائه فحسب ، بل يشربها أيضًا فى أمكنتها المعروفة لعصره وخاصة الأديرة مثل دير عبدون ، وهو يصرِّح بأنه كان يغرق فيها همومه إذ يقول [٤] :

وليس للهمِّ إلا شُرْبُ صافيةٍ كأنها دمعةٌ من عين مهجور

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٩ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٠٣ .
(٣) مروج الذهب ٤ / ٢٠٥ .
(٤) الديوان ص ٢٣٠ .

فهو يقبل عليها لتنسيه همومه ، ولتمسح على كدر حياته بنصاعتها وصفائها ، وليتسلى ويتعزّى عن مقتل أبيه الذى لم ينسه يوما ، ومثله فى الخمر مثله فى الحب ، فهو لا يتعبّد لها كما كان يتعبد أبو نواس ولا يسبّح بآلائها مقدّمًا إليها قرابينه من الشعر ، إنما هو يتسلّى بها ويتسلّى بما ينظمه فيها بمثل قوله فى مديح الصبوح [١] :

اسْقِنِى الراحَ فى شباب النهارِ ... وانْفِ هَمِّى بالخَنْدَرِيس العُقارِ [٢]
قد تولَّتْ زُهْرُ النجوم وقد بَشَّـ ... ـرَ بالصُّبْح طائرُ الأَسحارِ
مـا ترى نعمةَ السماء على الأَرْ ... ضِ وشكرَ الرياض للأَمطارِ
وغنـاء الطيور كلَّ صباحٍ ... وانفتـاقَ الأَشجار بالأَنوارِ
فكـأَنَّ الربيع يجلو عروساً ... وكأَنا من قَطْرِهِ فى نِثار [٣]

وهى أبيات تصور إحساسه بما ينعكس على بصره من جمال الطبيعة صباحًا فى الربيع ، ولكنها لا تصور حبًّا ولا تهالكًا على الخمر ، ولا عاطفة جامحة أو متقدة ، إنها ليست أكثر من أبيات يتسلى بها ويتعزى ويُظْهر مقدرته على النظم فى الخمر ، ولذلك يكون من السهل عليه أن ينقض هذا المدح للصبوح ويضع قصيدة بل قل مزدوجة [٤] فى ذمه امتدت إلى نحو مائة وعشرين بيتًا وفيها يقول :

فأَىُّ فَضْل للصَّبُوح يُعْرَفُ ... على الغَبوق والظلامُ مُسْدِفُ [٥]

ويطيل فى الأسباب التى من أجلها يذمه ذمًّا قبيحًا ، كأن يعرّض المصطبحين للبرد القارص شتاء والحر اللافح صيفًا . وقد يكون مصدر هذا الذم شيوع المناظرات لعصره وبيان محاسن الشىء ومساوئه ، كما مرَّ بنا عند ابن الرومى فى ذمه للورد ، ولكن من المؤكد أن ابن المعتز لم يصور فى ذلك عاطفة ، وإنما صور عبثًا عقليًّا ، وقد

---

(١) الديوان ص ٢٣٢ وأشعار أولاد الخلفاء ص ١٩٠ .
(٢) الخندريس العقار : الخمر .
(٣) النثار : ما ينثر على العروس من الدراهم الفضية .
(٤) الديوان ص ٤٧٣ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٥١ .
(٥) مسدف : مرخى الستور .

يكون أهم من هذا العبث وصفه للبستان فى مزدوجة مشهورة له ، إذ يقول :

وياسمينٌ فى ذُرَى الأَغصانِ منتظمٌ كقطَع العِقْيانِ
والسَّرْوُ مثل قضب الزبرجدِ قد استمَدَّ العَيش من تُرْبٍ نَدِى
على رياضٍ وثَرًى ثَرِىٍّ وَجَدْولٍ كالمِبْرَدِ الجَلِىِّ
وجُلّنارٌ كاحمرار الخــدِّ أَو مثل أَعراف ديوكِ الهندِ

ويستمر فى رصف مثل هذه التشبيهات والصور ، وكانت لديه مهارة خارقة فى اجتلابها ، والملاءمة بينها وبين ماعون بيته كما لاحظ ذلك ابن الرومى آنفًا . وقد لا يستمدها من ماعون بيته ، ولكن نحس كأنما عقله كان كنزاً زاخراً بالتشبيهات والصور . وأكثر من تصوير أضواء الصباح وهى تحسر عن الأفق خيوط الظلام وسواده ، فتارة يشبه الظلام بحبشى أسود والصباح يفترّ عن أسنانه ضاحكًا من فراره ، أو يشبهه بغراب قوادمه بيضاء أو مقصوص الجناح ، أو بأسود عريان يمشى فى الدجى بسراج ، وقد يشبه الهلال بزورق من فضة مملوء بالعنبر ، ومن بديع تشبيهاته له تصويره بقوله[1] :

كمنْجَلٍ قد صِيغَ من فضَّةٍ يَحْصُدُ من زهر الدُّجَى نَرْجِسَا

وتكثر فى الديوان مثل هذه التشبيهات البارعة لعناصر الطبيعة ، ولم يقف عند الطبيعة المتحضرة وحدها فقدكان يلم بالطبيعة الصحراوية . ولعل أبا الفرج الأصبهانى لم يرد فى دفاعه عنه الذى مرَّ بنا أن ينكر عليه أنه نظم بعض شعره فى الأطلال والبيد وحيواناتها ، إنما أراد الإكثار من النظم فى الصحراء إذ له أشعار مختلفة فى وصفها ، وقد مرت بنا فى غير هذا الموضع أبيات طريفة له فى وصف الأطلال والديار الخالية ، وأخرى فى وصف ثور الوحش وبقره ، ومن طريف ماله فى وصف الإبل قليلة اللبن وهى تُحْلَبُ قوله[2] :

رأَيت انهمار الدرِّ بين فروجها كما عصرتْ أَيدى الغواسل أَثوابا

---

(١) الديوان ص ٢٧٨ .
(٢) الديوان ص ٣٦ .

وقوله فى أخرى وسُراه عليها طوال الليل ، كأنها هائمة تطلب شيئًا ضالا منها[١] :

فكأَن أَيديَهُنَّ دائبةً يَفْحَصْنَ ليلتهن عن صُبْح

وله فى الخيل أشعار مختلفة ، وطبيعى أن يُعْنَى بها ، إذ كان شغوفًا بالصيد ، حتى ليحتل الطَّرَدُ جزءاً كبيراً من ديوانه وأشعاره ، ومن طريف ما نعته بها قوله فى مقدمة إحدى طردياته يصف فرسًا له[٢] :

قد أغتدى والصبح كالمشيبِ فى أفقٍ مثل مداك الطيبِ[٣]

بقارحٍ مسوَّمٍ يَعْبُوب ذى أُذن كخُوصة العَسِيب[٤]

أَو آسة أَوفتْ على قضيب يسبق شأْوَ النظرِ الرحيب[٥]

أَسرعُ من ماءٍ إلى تصويب ومن رجوع لحظة المريب

وينتقل من وصف الفرس إلى وصف الصقر أداته فى تلك الرحلة للصيد ، ويصف مهارته فى تعقب طرائده من الطير وانقضاضه عليها بمنسره ومخالبه ، يخزها ويطعَنها مسيلا لدمائها مزهقًا لأرواحها ، يقول :

وأجدلٍ أُحْكم بالتأْديبِ سَوْطِ عذاب واقعٍ مجلوبِ[٦]

يَهْوى هُوِىَّ الماء فى القَلِيب ما طار إلا لدمٍ مصبوب[٧]

وعلى نحو ما يصور الصقور الجارحة فى طرده وصيدها للطير يصور البزاة بأبصارها الثاقبة ومناسرها الحادة المرهفة كالأسنة المُشْرَعة ، ومن طريف ماله فى تصوير عين باز قوله[٨] :

ومقلة تَصْدُقه إذا رَمَقْ كأَنها نَرْجِسَةٌ بلا وَرَقْ

---

(١) الديوان ص ١٤٠ .

(٢) الديوان ص ٨٦ وزهر الآداب ٢ / ٢٣ وأشعار أولاد الخلفاء ٢٠٩ .

(٣) المداك : الحجر الذى يسحق عليه الطيب .

(٤) قارح : مكتمل الخلق . مسوم : معلم حسن الخلق . يعبوب . سريع الجرى .

(٥) أوفت : أشرفت .

(٦) أجدل : صقر .

(٧) القليب : البئر .

(٨) أشعار أولاد الخلفاء ص ٢١٨ وديوان المعانى ٢ / ١٤٠ .

وله فى الكلاب طرديات كثيرة يأتسى فيها بأبى نواس ، بل هو فى طردياته جميعًا يأتسى به ويحاكيه حتى فى ألفاظه التى يفتتح بها تلك الطرديات ، من مثل : قد أغتدى . وقد مضى فى إثره يتحدث عن ضمورها ومتانة أعضائها وشدة سمعها وحدَّة براثنها ونشاطها وسرعة عدوها على شاكلة قوله فى إحدى طردياته[٢] :

ومُخطَفٍ موثَّق الأعضاء ذى أذنٍ ساقطةِ الأَرجاء[٣]
كوردة السَّوْسَنَة الشَّهْلاء وبُرْثنٍ كمِشْقَبِ الحذَّاء[٤]
ومقلةٍ قليلةِ الأَقذاء صافيةٍ كقطرةٍ من ماء
تنساب بين أكم الصحراء مثل انسياب حَيَّةٍ رَقطاء[٥]

وله طرديات أخرى فى الفهد ، وفى قوس البندق ، ويُكثر فيها جميعًا من التشبيهات والصور الطريفة ، ومن الحق أنه كان بارعًا فى تصوير أى شىء يلم به من كوكب فى السماء أو نجم أو سحابة أو رياض وأزهار فى الطبيعة المتحضرة أو حيوانات وأطلال فى الطبيعة المتبدية ، وليس بين المحدثين من وصف الحيَّة وصفه لها فى قوله[٦] :

كأَننى ساورتنى يوم بَيْنِهِمُ رقشاءُ مجدولةٌ فى لونهـا بَلَقُ
كأَنها حين تبدو من مكامنها غُصْنٌ تفتَّح فيه النَّوْرُ والوَرَقُ
ينسلّ منها لسانٌ تستغيث به كما تعوَّذ بالسَّبَّابة الغَـرِق

وله مراسلات بالشعر بينه وبين إخوانه وهى تكثر كثرة تجعلنا نظن ظنًّا أنه من أوائل من أعدوا لفتح باب الإخوانيات فى الشعر العربى ، وهو فى طائفة منها ينحو نحو الدعابة . ويكثر فى شعره — كما قدمنا — من التفكير فى الموت ومصير الحياة

---

(١) الديوان ص ١٨ وأشعار أولاد الخلفاء ص ٢٠٧ .
(٢) مخطف : ضامر . ساقطة الأرجاء : شديدة السمع .
(٣) السوسنة : الزنبقة
(٤) رقطاء : رقشاء أى بها نقط سود وبيض .
(٥) الديوان ص ٣٣٠ .

والشكوى من الدنيا ومن الأصدقاء ، وعللنا ذلك آنفًا بأنها طوابع طبعتها فى نفسه نكبته بأبيه ونفيه إلى مكة فى صباه ، وقد ظل يحنُّ إلى سامراء بعد نزوله ببغداد وما لقى من بعوضها ونقيق ضفادعها [١] .

وقد تحدثنا فى غير هذا الموضع عن اهتمامه بالشعر التعليمى ونظمه فيه مزدوجة تاريخية صوَّر فيها سيرة صديقه وابن عمه المعتضد والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية لعصره . ولعل فى كل ما أسلفنا ما يشهد ببراعته وامتيازه بين الشعراء لعصره .

٥

الصنوبرى [٢]

هو أحمد بن محمد بن الحسن الضبى الصَّنَوْبرىّ ، وفى بعض المصادر أن اسمه محمد[٣]، وهو خطأ ، إذ ذُكر اسمه فى ديوانه غير مرة باسم أحمد، من مثل قوله معزيًا نفسه فى بعض الظروف :

ارْضَ حكم الزمان يا أحمد ارْضَهُ إن تَذُقْ ضَيْمَهُ فقد ذُقْتَ مَحْضَهُ [٤]

وصُحِّف لقبه « الضبى » نسبة إلى قبيلة ضَبَّة فى فوات الوفيات، فصار « الصينى » ولا علاقة له بالصين ، إنما هو تصحيف النساخ . أما لقبه الثانى « الصنوبرى » فزعم هو نفسه أن جَدَّه كان يعمل فى دار الحكمة لعهد المأمون فاشترك فى مناظرة بين يديه وأعجب به فقال له : إنك لصنوبرى الشكل دلالة على ذكائه وحدة مزاجه ، ولعل المأمون لم يُرد بذلك إلا سَمْته وصورته وأن وجهه على

---

(١) الديوان ص ٤٠١ .

(٢) انظر فى ترجمته وأشعاره تهذيب تاريخ ابن عساكر ١/ ٤٥٦ وفوات الوفيات (طبعة محيى الدين عبد الحميد) ١/ ١١١ والوافى بالوفيات للصفدى ٧/ ٣٧٩ وشذرات الذهب ٣/ ٣٣٥ ومعجم البلدان لياقوت فى (حلب) وديوانه بتحقيق الدكتور إحسان عباس طبع الثقافة ببيروت .

(٣) الفهرست ص ٢٤٥ .

(٤) الضيم : المنزوج بالشوائب . والمحض : الخالص غير المشوب

هيئة ثمر الصنوبر المخروط الصورة ، ويفخر الصنوبرى بهذا اللقب لأسرته قائلا[١]:

إذا عُزِينا إلى الصَّنَوْبر لم نُعْزَ إلى خاملٍ من الخشبِ
لا بل إلى باسق الفروع عَلَا مناسباً فى أرومة الحسبِ

وهو من أهل أنطاكية، ولكن منشأه ومَرْباه فى حلب، ولا ندرى كيف تحوَّل أبوه به إليها ، وقد مضى مثل لداته يحفظ شيئًا من القرآن ويُكِبُّ على حفظ الشعر وتعلم العربية ، وكانت حلب مثلها مثل المدن الكبرى فى العالم العربى تزخر بعلماء اللغة والحديث والفقه وكان بها بعض الأطباء ، وكانت الكتب على رفوف المكتبات تحت أعين الصبية والشبان. وفى ديوانه إشارات مختلفة إلى بعض العلماء فى اللغة وإلى بعض القضاة وبعض الأسر المهتمة برواية الحديث النبوى وإلى بعض المتطببين ، ونراه يذكر أرسطاطاليس وبقراط فى بعض أشعاره[٢]. وقد يدل ذلك من بعض الوجوه على أنه عكف منذ نعومة أظفاره على الدرس والتحصيل ، وأنه قضى فى ذلك شطراً من حياته حتى تخرج شاعراً مثقفا ، على الأقل ملمًّا بالثقافات لعصره ، إن لم يكن إلمامًا عميقًا ، فإنه على كل حال معرفة واطلاع .

وقد عاش حياته فى حلب ، وكان يلم كثيراً بالموصل والرقتين ، وألم بدمشق ، ونجده لا يترك واليًا على موطنه إلا ويقدم له مدائح وأشعاراً كثيرة ، وهو يستهل ذلك بمديحه لِـذَكَا[٣] بن عبد الله الأعور والى حلب منذ سنة ٢٩٥ حتى سنة ٣٠٢ وتحتفظ بقية الديوان المنشورة باسم الصنوبرى بقصيدة فى مديح ابنه المظفر[٤] يصفه فيها بالكرم والشجاعة ، ويوصيه بشاعر يسمى الطبرانى أن يسبغ عليه من كرمه وجوده . وكان هذا الوالى يتخذ يحيى بن محمد التفرى وزيراً له وعوناً وظهيراً ، وللصنوبرى فيه قصيدة طنانة يصور فيها بلاغته وبعوثه لحروب القرامطة والروم ، ويخلف هذا الوالى على حلب أحمد بن كَيَغْلَغ القائد المشهور فى العصر ويظل

---

(١) الديوان ص ٤٥٦ .
(٢) الديوان ص ٢٧٩ .
(٣) انظر فى هذا الوالى ومن بعده كتاب زبدة الحلب لابن العديم بتحقيق الدكتور سامى الدهان طبع دمشق الجزء الأول ص ٩٢ وما بعدها .
(٤) الديوان ص ١٥٦ .

بها نحو سنة ويعود إليها فى سنة ٣١٧ ويظل بها سنة أخرى ، وكان عونه فى حكمه لحلب ابنه العباس ، ويضفى عليهما مدائح كثيرة ، ويبدو أن صلات العباس له كانت متوالية ، ولذلك أكثر من مديحه . كما مدح محمود بن حبك الخراسانى الذى حكم حلب بعد ولاية ابن كَيَغْلَغ الأولى عليها وظل يحكمها حتى سنة ٣١٢ ونمضى مع الشاعر بعد ولاية ابن كيغلغ الثانية فنجده يمدح طريفًا السبكرى حتى إذا خلفه أحمد بن سعيد الكلابى سنة ٣٢٤ وجّه إليه مدائحه . وتدخل حلب فى حكم ابن رائق صاحب دمشق ويعينه فى حكمها أبو الحسين بن مقاتل منذ سنة ٣٢٧ ويمدحه الصنوبرى مهنئًا له بشهر رمضان ، وسرعان ما يستولى يانس المؤنسى من قبل الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب الموصل على حلب سنة ٣٣٠ ويمدحه الصنوبرى بمثل قوله[١] :

هو الفارسُ المُرْوِى من الدم سَيْفَهُ إذا لم يُطِق رىَّ السيوف الفوارِسُ

وتنشب حروب بين الإخشيد والحمدانيين أصحاب الموصل من جهة وبين الخليفة والبريدى من جهة أخرى ، وينزل الخليفة عند الحمدانيين وينصرونه على خصومه لسنة ٣٣٠ فيخلع على الحسن بن عبد الله بن حمدان لقب ناصر الدولة ، كما يخلع على أخيه على لقب سيف الدولة . وتشتعل الحروب بينه وبين الإخشيد فى سنة ٣٣٣ ولكنهما يفيئان إلى الصلح وتخلص حلب لسيف الدولة ، وهو فى أثناء ذلك ينازل الروم ويكبدهم خسائر فادحة فى الأرواح . ومنذ قَرْع سيف الدولة لأبواب حلب واستيلائه عليها نجد الصنوبرى يقدّم له مدائحه ، وأعجب به سيف الدولة ، فلم يكتف بما أجزل إليه من صلات إذ اتخذه أمينًا لمكتبته[٢] . ويبدو أن سيف الدولة لم يتعرف عليه قبل نزوله حلب ، وقد يؤكد ذلك أننا لا نجد فى ديوانه مديحًا لأخيه ناصر الدولة وآبائهما فى الموصل ، مع أن نجم الأسرة الحمدانية كان قد أخذ فى التألق منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، ومع أنها كانت أسرة شيعية ، وكان الصنوبرى نفسه شيعيًّا ، غير أنه ظل منحرفًا عنها ، حتى قدم سيف الدولة حلب وقد يرجع ذلك إلى اضطراب الأحوال فى بغداد واشتراك هذه الأسرة فى الفتن التى كانت تتعاقب

(١) الديوان ص ١٩٢

(٢) مطالع البدور للغزولى ٢ / ١٧٦ وآدم ميتز ص ٣٦٤ .

هناك ، ولعل هذه الفتن نفسها هى التى جعلته ينأى بنفسه عن بغداد وتقديم مدائحه لوزرائها وحكامها المختلفين . على أنه كان كثير المقام بالرقة ، وكان يمدح بعض ذوى الوجاهة والنباهة بها ولكنه لم يفكر فى مديح أمرائها الحمدانيين ، إلا إذا كانت هناك أشعار أخرى لم يحملها ديوانه خصَّها بمديحهم .

على أن هذا الجانب يجعلنا نفكر فى شأن تشيعه ، فديوانه يمتلئ بمراث لآل البيت وللحسين خاصة ، مما يؤذن بأنه كان متشيعًا حقًّا ، وهو يذكر فيه ما يؤمن به الشيعة من أن الخلافة ليست مفوضة للأمة وأنها تنتقل بالوصية من الرسول إلى على وأبنائه ، على نحو ما نرى فى مثل قوله [١] :

حبَاه بالوصيَّـــة إذ حَباه وهْو ذو دَنَفِ

ويبدو أنه لم يكن غاليًا فى تشيعه ، بل يبدو أنه لم يعتنق مذهب الإمامية الاثنى عشرية الذى كان قد أخذ ينتشر فى بعض أركان العراق لعصره . وفى ديوانه قصيدة وجَّه بها إلى جعفر بن على صاحب الزاب فى المغرب الأوسط ، وصلة جعفر وأبيه على بالدعوة الإسماعيلية التى كانت قد أخذت فى الذيوع بتلك الديار مشهورة ، ولكن ينبغى ألا نفهم من ذلك أن الصنوبرى كان على صلة بتلك الدعوة لا فى مقرها الجديد بالمهدية فى المغرب ولا فى مقرها القديم بسَلَمْيَةَ فى الشام [٢] ، وقد يؤكد ذلك أننا نجده يهاجم القرامطة [٣] الذين كانوا متصلين بتلك الدعوة حين أغاروا على الحجيج يوم التروية لسنة ٣١٧ وقتلوهم قتلا ذريعًا ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . وربما كان أكثر من ذلك تأكيداً أننا نجده يمدح زيادة الله بن الأغلب صاحب تونس ، بعد أن هزمه أبو عبد الله الشيعى داعية الفاطميين لسنة ٢٩٦ ، وخرج من بلاده إلى العراق وأقام — حسب أوامر الخليفة — بالرقة [٤] ، وظل بها حتى توفى سنة ٣٠٤ للهجرة [٥] . ونرى الصنوبرى حينئذ يمدحه بغير قصيدة [٦] ولو أنه كان على صلة بالدعوة الفاطمية الإسماعيلية ما نظم فيه بيتًا مثنيًا عليه أو مادحًا . ونجده

---

(١) الديوان ص ٣٩٨ .

(٢) فى ديوانه مديح لصديق هاشمى من سلمية هو أبو إسحق السلمانى ، ولكن ليس فى مديحه له ما يصور شيئاً من الدعوة الإسماعيلية .

(٣) الديوان ص ٩٦ . .

(٤) النجوم الزاهرة ٣ / ١٦٨ .

(٥) النجوم الزاهرة ٣ / ١٩٠ .

(٦) الديوان ص ٣١٧ ، ٤٠٩ .

حين يمدح آل البيت يمدح حمزة وجعفراً الطيار كما يمدح العباس[١] جد العباسيين. وهو يكثر من مديح بعض الهاشميين من سلالة على بن أبى طالب ، ولكنه أيضًا يكثر من مديح الهاشميين من سلالة العباسيين أمثال أبى العباس أحد أحفاد الرشيد وله يقول[٢] :

أأبناءَ الخلافةِ من قريشٍ وساسةَ أمرِ عالمنا المسُوسِ
ألَنتُمْ من حُزون الدهر حتى توهمتُ الحزونَ من الوعوس[٣]

وفى ديوانه ما يدل بوضوح على أنه كان لا يزال يَرْحَلُ من حلب إلى الرقة على الفرات ، حتى لتُعَدّ كأنما كانت موطنه الثانى وخاصة فى أيام شبابه وإدمانه على اللهو وخَلْعه للعذار . وكان لا يزال يؤمّ فيها مع بعض الفتيان والرفاق دير زكّى لجمال متنزهاته ، ولما كان يجاوره من أماكن الصيد برًّا وبحراً . وكثيراً ما كان يلمّ بمدينة الرّها هناك وكان بها دكان وَرّاق يسمى سعداً ، وكان يجتمع فيه بكثير من أدباء العراق والشام ومصر . ومن الرقة حتى دمشق كان ينزل فى كل ما بينهما من البلدان ، ولم يدع جواداً أو حاميًا من حماة الأدب فى تلك الأنحاء حتى قدم له مدائحه ، ونستطيع أن نميز بين ممدوحيه عبد الرحمن الجلاّبى من أهل حرّان بالموصل وابن كوجك فى طرابلس وعلى بن سهل بن روح فى حمص ، أما الحلبيون فكثيرون من مثل أسرة السبيعيين ، وكان منهم من يعنى برواية الحديث النبوى مثل الحسن بن أحمد السبيعى وله كتاب « التبصرة فى فضيلة العترة الطاهرة » ومثل القاضى أبى عبد الرحمن بن أخى الإمام ومثل على بن محمد بن حمزة العباسى الهاشمى وكان له قصر منيف وبساتين فى موضع يسمى فارث ، وله فيه قصائد رائعة ، ومثل أبى عبد الله الكرخى صاحب الخراج . وكثيرٌ هم العلويون الذين مدحهم مثل إسماعيل بن الفضل الهاشمى وابنه أبى بكر وحفيده أبى عيسى ومثل طاهر بن محمد ومحمد بن الحسين الهاشميين . وكان يختلط فى كل البلدان التى ينزل فيها بشعرائها وأدبائها ، وكان من أقربهم إلى

---

(١) انظر الديوان ص ٣٣
(٢) الديوان ص ١٨٥
(٣) الحزون : جمع حزن وهو الأرض الصلبة ، والوعوس جمع وعس وهو الأرض السهلة .

نفسه المعوج الرقى ويقال إنه أستاذه ، وقد توفى سنة ٣٠٧ وبكاه بمرثية طويلة يقول فيها[١] :

يا سماءَ الشعر التى لى عليها ... كلَّ يوم سماءُ دَمْعٍ تفيضُ
كيف تجنى الأَفهامُ زهرَ المعانى ... بعد ماجفَّ رَوْضُهنَّ الأَريضُ

ولعل أهم صداقة كانت بينه وبين شاعر الصداقةُ التى انعقدت بينه وبين كشاجم ، ونظن ظنًّا أنها بدأت فى الرقة ، وكان كشاجم قد اتصل هناك بأبى الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، فرعاه وصار من حاشيته ، ثم صار من حاشية ابنه ، ورافقه حين ألقى عصاه بحلب ، حتى نهاية حياته ، وكان أصغر سنًّا من الصنوبرى ، وكأنه اتخذ منه معلمه ورائده فى الشعر ، فنسج على منواله ، فى وصف الرياض وفى الخمريات والغزل ، وبينهما مداعبات ومعابثات واستعطافات كثيرة ، وكأن الأستاذ دائمًا كان حريصًا على رضا تلميذه . وتمنى التلميذ يومًا لو أصهر إلى أستاذه فى ابنة[٢] له ، ولعل عالمًا لغويًّا لم يحظ بصداقة الصنوبرى كما حظى على بن سليمان الأخفش الصغير ، وكان قد رحل عن بغداد إلى مصر سنة ٢٨٧ ثم تركها سنة ٣٠٠ موليًا وجهه نحو حلب ، فظل فيها حتى سنة ٣٠٥ . وفى هذه السنوات الخمس انعقدت له حلقة كبيرة بالمسجد الجامع أمَّها الشباب للتثقف ، وكان بينهم الصنوبرى ، فملك الأخفش عليه لبَّه ، وإذا هو ينظم فيه قصيدة طويلة يصور فيها نهله هو ورفاقه من ينبوعه العظيم ، بمثل قوله[٣] :

كَرَعْنا منه فى أَبْحُـ ... ـرِ علمٍ غير مَنْزوفه
وطالَعْنا رياضَ العِلْـ ... ـم بالآداب محفوفه

وتضطره بعض ظروفه إلى أن يبرح محاضراته إلى أنطاكية مسقط رأسه ، فيكتب إلى الأخفش متشوقًا كما يقول ، واصفًا فراقه لهذا الفردوس العلمى ، متمنيًا لو ذاعت عليه ظلاله . وتمتد به الأيام بعد ذلك نحو ثلاثين عامًا يقضى معظمها فى اللهو ، ويفيق مرة من كئوسه فى نحو السنتين من حياته فيتمنى لو زهد فى الدنيا ومتاعها الزائل

---

(١) الديوان ص ٢٦٢ .
(٢) ديوان كشاجم (طبعة بيروت) ص٧٩ .
(٣) الديوان ص ٣٧٧ .

معلناً أنه بلغ السابعة والخمسين وآن له أن يزدجر ويرعوى ويكف عن اللهو وآثامه ، يقول[١] :

ألقتْ رداءَ اللهو عن عاتقى خمسٌ وخمسون مضتْ واثنتانْ

وفى البيت ما يدل على أنه لم يمت وقد ناهز الخمسين كما يقول ياقوت[٢] ، بل مات وقد ناهز على الأقل الستين ، ولا ندرى هل هجر اللهو فعلا كما تمنى أو ظل يشرب كئوسه صافية وممزوجة حتى الأنفاس الأخيرة من حياته لسنة ٣٣٤ للهجرة . وكان يعيش على ما يظهر فى يسر دائماً ، إذ نراه يذكر — كما يذكر ذلك كشاجم — أن له بحلب ضيعة وبستاناً وقصراً حوله الأشجار والورود والرياحين[٣] . وكثيراً ما نراه يدعو صحابه ورفاقه لمآدب عنده[٤]

وأخذ كثيرون يروون أشعاره وهو على قيد الحياة ، وعُنى أحد تلاميذه من الشعراء وهو أبو العباس الصفرى برواية ديوانه وعنه رواه القاضى أبو عمر عثمان بن عبد الله الطرسوسى[٤] ، واهتم به معاصره أبو بكر الصولى فجمعه ورتبه على حروف الهجاء فى مائتى ورقة[٥] . ولم يلبث الديوان أن دخل الأندلس بعد وفاة صاحبه بنحو عشرين عاماً لعهد الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) . على يد مواطن للصنوبرى ترجم له ابن الفرضى فى تاريخ[٦] علماء الأندلس ، هو محمد بن العباس الحلبى ، وعنه رواه اللغوى المشهور أبو بكر الزبيدى الإشبيلى ، وذاعت هذه الرواية بين أدباء الأندلس ، ونرى ابن خير يذكر طرقها فى فهرسته[٧] . ولم يصل إلى عصرنا من الديوان إلا جزء منه يشتمل على قصائده من قافية الراء حتى القاف . أما الجزء الذى يسبقه والآخر الذى يلحقه فمفقودان ، وحقق الجزء الباقى تحقيقاً علمياً الدكتور إحسان عباس وألحق به ما وجده فى المصادر المخطوطة والمطبوعة من أشعار الصنوبرى

---

(١) الديوان ص ٥٠٣ .

(٢) انظر حلب فى معجم البلدان .

(٣) الديوان ص ٣٤٧ وانظر ديوان كشاجم ص ٧٤ .

(٤) انظر مثلا ص ١٥٥ فى الديوان .

(٤) الديوان ص ١٨٧ .

(٥) الفهرست ص ٢٤٦ .

(٦) تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١٤٠٢ .

(٧) فهرسة ما رواه ابن خير عن شيوخه ص ٤٠٨ .

ونشر هذا الملحق مع الجزء المذكور باسم ديوان الصنوبرى ومعه فهارسه فى نحو ٥٨٠ صفحة .

ومن يقرأ فى شعر الصنوبرى يلاحظ تَوًّا أنه كان يعنى بصناعة شعره وأنه أكبَّ على الشعراء من قبله يقرأ فيهم ويستوعب ويتمثل، وخاصة أبا تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز ، فهو أحيانًا يكثر من الجناس ومن فنون البديع على طريقة أبى تمام ، وأحيانًا لا يذهب بعيداً فى استخدام هذه الفنون على طريقة البحترى ، وهو يكثر من التشبيهات والصور على طريقة ابن المعتز كما يكثر من وصف الطبيعة على طريقة ابن الرومى . وظل يمرن نفسه على نظم الشعر ويروضها على صناعته حتى قال[1] :

ما حَلَّ بى منك وقتَ مُنْصَرفى ؟ ما كنت إلا قريسةَ التَّلَفِ
كم قال لى الشوق قِفْ لتلثمه فقال خوف الرقيب لا تقفِ
بسطت خطوى كرهاً وقد قبضتْ رجلى عن الخطو شدةُ الكلف
فكان جسمى فى زِىٍّ منطلقٍ وكان قلبى فى زى منعطفِ

فارتضى حينئذ أن يعلن عن شاعريته وأن يقدم أشعاره لمن حوله، والأبيات فيها غير قليل من التكلف فى التعبير ، وخاصة البيت الثانى، ومع ذلك تنمّ عن شاعرية جيدة ، وواضح فيها العناية بالطباق والمقابلة على نحو ما يلاحظ القارئ لبيتيه الثالث والرابع . وأخذ يسلس له الشعر وأسلم له قياده حتى أصبح من المجلّين فيه البارعين .

وإذا أخذنا نستعرض موضوعات الشعر عنده لاحظنا أنه عُنى بالمديح عناية واسعة ، إذا اتخذ شعره متجراً له ومربحًا . فهو يقدّمه لولاة حلب ونوابهم وأبنائهم ومساعديهم ، وكثيراً ما يصرّح فيه بتنجز الوعود ، وأنه لا يزال ينتظر هبة الممدوح وجائزته ، وأكثر من مديح العباس بن أحمد بن كَيَغْلَغ ، وفيه يقول[2] :

---

(١) الديوان ص ٣٨٨ .
(٢) الديوان ص ١٦٠ .

وكيَغْلَغىُّ المجد يُلْفَى مجدُه ثَبْتَ الدعائم محصدَ الأَمْراسِ[1]
فَرْدُ الكيان فكفّه من رحمةٍ تَسَعُ الأَنام وقلبه من باسِ
أَعْدَى على صَرْف الليالى المعتدى وألان من طبع الزمان القاسى
يوماه ذا عيدٌ وذا عُرْسٌ وإن جَلاَّ عن الأَعياد والأَعراسِ
يـأْبى الحجابَ وليس يحجب بشره عن أَعين الندماء والجُلاَّسِ

والأبيات مليئة بالجناسات والمقابلات والتقسيمات، على نحو ما يلاحظ فى أعدى والمعتدى والحجاب ويحجب، وفى الكف والقلب واللين والقسوة والعيد والعرس. وكأنما كتب أشعاره على أضواء من ديوان أبى تمام، وإن كان لا يبلغ مبلغه فى اقتناص المقابلات والجناسات. فقد كان أبو تمام أكثر دقة وأنفذ بصيرة. ولا نبالغ إذا قلنا إن أجود ما صاغه من مدائح صاغه فى الهاشميين من عباسيين وعلويين، وأهم هاشمى عباسى أسبغ عليه مديحه على بن محمد بن حمزة الهاشمى، وكانت له — كما مرَّ بنا — ضياع يتوسطها قصر فى مكان يسمى فارث، وكان الصنوبرى كثيراً ماينزل عنده بهذا القصر وينعم بما فيه من ترف ومن أسباب النعيم ووسائله، وله فيه قصيدة عينية رائعة يصور فيها ما نعم به عنده من غناء بعض الجوارى ومن راح وخمر. كما يصور بستاناً حافلا بالورود والرياحين وبركة حسناء تنهل فيها النجوم ويتحول إلى مديح ابن حمزة هاتفاً[2]:

ابْقُوا بنى العباسِ مابقىَ الحصَا لنَدًى يُؤَمِّلُ أَو لخَرْقٍ يُرْقَعُ[3]

ويمدح كثيراً من العلويين المقيمين بحلب وغير حلب. ودائماً يذكر أنهم عترة المصطفى وأنهم الجوهر المصفَّى وسراج الدنيا. ومن خير مدائحه فى الهاشميين مدائحه لأبى إسحق السلمانى. ويصفه بالعلم الغزير والاطلاع الواسع على الثقافة اليونانية حتى ليرفعه درجات على أرسطاطاليس وبقراط، قائلا[4]:

وأَدقَّ من رَسْطالِس نظَرًا إذا ناظرْتَه وأَشفَّ من بُقْرَاط

(١) محصد: قوى متين.
(٢) الديوان ص ٣٢٧.
(٣) يريد بالخرق: الفتنة.
(٤) الديوان ص ٢٧٩.

فِكَرٌ غَدَتْ أقفالَ فكرٍ كلُّها ... لكنهنَّ مفاتحُ استنباط

والرثاء كثير فى الديوان بصوره الثلاث من العزاء والتأبين والندب ، فهو يعزى جعفر بن طاروف عن أخيه [١] بأن تلك حال الزمان يعصف بكل الأحياء ، وقديمًا عصف بجرهم وطسم وأقيال حمير وكسرى وقيصر ، ويعزّى ابن حمزة الهاشمى العباسى صديقه عن زوجته [٢] وأن طائراً لم يطر إلا كما طار وقع ، ولا شرب أحد فى دنياه جرعة حلوة إلا أعقبتها جرعة مرة . وحزن طويلا على صديقه أبى إسحق السلمانى حين وافاه القدر ، فأبّنه كثيراً واصفًا علمه وباكيًا عليه بمثل قوله [٣] :

غاب أَبو إسحقَ فى الأَرض بل ... غابَ سِراجُ الأَرض فى الأَرضِ

بكتْه عيناىَ وفوق البكا ... حتى بكى بعضى على بعضى

ومن أروع مراثيه ندبه للنبى عليه السلام ولآله ، وهو فيه يتحدث عن ابنته فاطمة الزهراء وعن على واصفًا مقتله الأثيم ومؤكداً وصية الرسول له بالخلافة كما أسلفنا ، ويذكر حديثه له فى غدير خم وأنه منه بمنزلة هرون من موسى ، ويعرض مقتل الحسين وما صبّه فى نفوس المسلمين من جزع وكمد . ويخصُّه بمراث كلها تفجع عليه ولوعات وزفرات ، ونراه فى بعضها [٤] يصوّر سيرة جده المصطفى العاطرة ليظهر مدى الإثم فى مقتله ، كما يصور سيرة أبيه على ونصرته للإسلام وماله من حقوق على الأمة ، ويبكى مقتله فى كربلاء بالقرب من الفرات ، وهو ساغب ، يريد بعض الماء ، فتلعق السيوف من دمه ودم شباب وصغار من بيته كانوا معه ، وتُعْوِل أم كلثوم ومن كان فى ركبه من النساء عويلا مُرًّا ، ويندد بقاتليه وفظاعة جريمتهم وما يزال يئنُّ لمصرع الحسين وهتك حُرمه بمثل قوله [٥] :

يومَ الحُسَيْن على الد ... ين كنت يوماً عسيرا

ملأْتِ والله كَرْباً ... يا كربـــلاءُ الصدورا

---

(١) الديوان ص ١٠٦ .
(٢) الديوان ص ٣٤١ .
(٣) الديوان ص ٢٦٥ .
(٤) أنظر الديوان ص ٢١٨ .
(٥) الديوان ص ٩٥ .

والفاطميون تَقَرْيـ ـهم السيوفُ الطيورا
والفـاطميات يَنْحَرْ ن بالدموع النُّحُورَا

ونراه فى جوانب من تفجعه على الحسين وآل البيت يتوسل إلى الرسول عليه السلامُ وفاطمة الزهراء وعلى وابنيه الحسن والحسين أن يكونوا شفعاء له يوم القيامة ، حتى يغفر الله له ذنوبه ، وهو يضيف إلى شفاعة الرسول المقررة عند أهل السنة شفاعة آل البيت ، تشيعًا لهم ، كأنهم ورثوها فيما ورثوه عن النبى صلى الله عليه وسلم. ويلتقى فى الديوان تفجعه على الحسين بتفجعه على ابنته ليلى وحيدته كما يقول ، ويندبها فى كثير من القصائد والمقطوعات ، وقد امتلأت نفسه شقاء وعناء ممضًّا وامتلأ قلبه حسرات ولوعات محرقة ، وما يزال يطلب إلى السحب أن تكسو الأرض من حول قبرها وشيًا بعد وشى وحريراً بعد حرير وأزهاراً وأنواراً فائحة العبير ، ويناجيها فى رمضان ذاكراً عبادتها فيه وعكوفها على القرآن الكريم ، وكيف تحوَّل العيد بعدها لغيابها عنه مأتمًا ، ويبكيها فى قصيدة ضادية ، ويبكى معها أختها التى ماتت منه فى الرقة ، وفى ذلك يقول[1] :

لنا فى الرَّقَّتين مضيضُ حزنٍ وفى حَلب المضيضُ على المضيض

وظل جُرْحه فى ليلى لا يرقأ ، وكانت عروسًا ، فانقلبت الفرحة حزنًا بل كارثة ، وانقلب الرحيق حريقًا يصطلى الصنوبرى بناره ، ويتعذب عذاباً شديداً ، ولا مغيث له ولا ملجأ سوى الدموع والأنات والزفرات وأن ينوح عليها بمثل قوله[2] :

يا ربة القبر المضىء الذى يضىء ضوءَ الكوكب السَّارِى
أَشتاق رؤياكِ فآتى فلا أرى سوى تُرْبٍ وأَحجارِ
قومى إلى دارك قد أَنكـرتْ صبركِ عنها أَىّ إِنْكارِ
استوحشتْ دارُكِ من أَهلها واستوحش الأَهـلُ من الدارِ

ومن أروع مراثيه مرثيته فى أمه ، وهو من أقدم من رثوا أمهاتهم إن لم يكن

(١) الديوان ص ٢٦٣ .
(٢) الديوان ص ١٠٠ .

أقدمهم ، وهو فى رثائه لها يصور شعوراً عميقاً بالحزن ، وقد استهله بقوله :[١]

قد صَوَّحَتْ روضتىَ المونقه وانتُزِعتْ دوحتىَ المورقه

ومضى يصور مرضها قبل موتها وكيف كان يئن لها أنيناً متصلا . وله مرثية طريفة لثوب أبلاه الدهر .

وهزَّته بل أثَّرت فى نفسه تأثيراً عميقاً فاجعة الحرم المكى الكبرى لسنة ٣١٧ حين هجم القرامطة على الحجاج، وهم يُهلون ويُلَبّون يوم التَّرْوية فأعملوا فيهم السيوف فى طرق مكة وفى البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره ، حتى ليقال إنهم قتلوا منهم نحو عشرة آلاف ، ونرى الصنوبرى يبكيهم بكاء حاراً ، هاتفاً[٢] :

دموعهمُ تجرى خشوعاً وخشية وأرواحهم تجرى على البيض والسُّمْر
وما غُسلوا بالماء بل بدمائهم وما حُنِّطوا إلا من التُّرْب لا العِطْرِ

ومضى يصف القرامطة بالكفر وأنهم لا يعرفون صلاة ولا سجوداً ولا طهراً ولا وضوءاً ولا صوماً ولا حجاً ولا شيئاً من فرائض الإسلام .

وله قصائد عدة فى الفخر ، وهو كثيراً ما يفخر فيها بقبائل قيس والقبائل المضرية عامة وبضبة قبيلته، وأيضاً كثيراً ما يفخر فيها بالمصطفى وآله . ونراه فى قافية له يضيف إليه أبا بكر الصديق وعمر الفاروق وخلفاء بنى العباس ، إذ يقول فى عدِّ قومه لمناقبهم ومفاخرهم[٣] :

عَدُّوا النبىَّ الهاشمىَّ ورهطه ووزيرَهُ الصدِّيق والفاروقا
ولهم خلائفُ من بنى العباس قد أعيوا جميع العالمين لحُوقا

وفى ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يكن غالياً فى تشيعه ، إذ يرتضى خلافة الصديق والفاروق وخلفاء العباسيين ، بل يمجِّدها ويشيد بها فى قوة . وله أهاج كثيرة يملؤها بالفحش، ومن أطرفها هجاؤه لزوج ابنته ليلى التى رثاها طويلا، ويبدو

(١) الديوان ص ٤٤٢
(٢) الديوان ص ٩٧
(٣) الديوان ص ٤٠٤

أنها توفيت عقب إعراسه بها ، فعدّه طائر شؤم وطالع نحس بغيض ، وهجاه مراراً وتكراراً بمثل قوله [١] :

ألا يابنَ الجُنَيْد اسمع وما أنت بذى سَمْع
على التَّفْريق إمْلاكُ لكَ هَدًّا لا على الجَمْعِ [٢]
على التَّعْس عَلَى الغَمِّ على النَّحْسِ على الفَجْعِ
علىَّ تحــرُّقُ القلبِ علىَّ تحدُّرُ الدمْع

وله قصيدة [٣] فى هجاء بعض الشمامسة ، يصفه فيها بالشره فى الأكل وببعض العادات القبيحة ، وبالثقل حتى إنه ليتفوق على جبل رَضْوَى فى ثقله ، وبالشؤم حتى ليوازى البوم فى شؤمه ، ومن قوله فى ثقيل [٤] :

لو مَرَّ من ميلٍ توهمتَه قد مرَّ بين العَيْن والحاجبِ

وفى ديوانه معاتبات واستعطافات بينه وبين بعض أصدقائه ، وألطفها ما نظمه فى استعطاف صديقه ورفيقه الحميم كشاجم ، وكانا كأنهما روح واحدة فى جسدين أو جسد واحد فى ثوبين ، فقد جمعت بينهما لحمة الشعر ، ووثقت بينهما من الصداقة ما لا توثقه قرابة الدم ، وله يقول متودّداً مستعطفاً [٥] :

أَخٌ لى عاد من بعد اجتنابِهْ وفَرَّق بين قلبى واكتئابِهْ
وخاطبنى فخلتُ بأَن زهر الـ ـرُّبَى الموشىَّ يُجْنَى من خطَابِهْ
فقرَّب بين أَجفانى وغُمْضِى وباعد بين دَمْعِى وانسكابِهْ
أَتانى أَرْىُ منطقه فعَفَّى على ما ذُقْتُه من طَعْم صَابِهْ [٦]

وله غزليات كثيرة ، غير أن كثيراً منها فى الغلمان ، وحاولنا — فى غير هذا الموضع — أن نخفف من حِدّة هذه المثلبة السيئة عند الصنوبرى وغيره ، فقلنا إن

---

(١) الديوان ص ٣٤٦ .
(٢) الإملاك : الزواج .
(٣) الديوان ص ٢٠٠ .
(٤) الديوان ص ٤٥٩ .
(٥) الديوان ص ٤٥٧ .
(٦) الأرى : الشهد أو عسل النحل . والصاب : العلقم .

كثيراً من شعر الغلمان ، إن لم يكن جُلَّه ، كان يُقال على سبيل الدعابة والتنديد فى أثناء السكر وشرب الخمر . وله غزل فى فتيات ونساء كثيرات ، ويغلب عليه التكلف إذ نراه يبحث غالباً عن تشبيه أو صورة ، ومن غزلياته الطريفة قوله[١] :

تزايد ما ألقى فقد جاوز الحَدَّا ... وكان الهوى مزحاً فصار الهوى جِدَّا
وقد كنت جَلْدًا ثم أوهننى الهَوَى ... وهذا الهوى ما زال يستوهن الجَلْدَا
فلا تعجبى من غُلْبِ ضَعفك قوَّتى ... فكم من ظباءٍ فى الهوى غلبتْ أُسْدَا
جَرَى حبُّكم مجرى حياتى ففقدكم ... كفقد حياتى لا رأيتُ لكم فقْدَا

ومع ذلك فالقطعة لا تخلو من تكلف ، حين يحوِّل الهوى من المزح إلى الجد وحين يصبح واهناً بعد أن كان جلداً ، وحين يغلب الضعف القوة ، كل ذلك ليأتى بالطباق . وأطرف من هذه المقطوعة مقطوعته التالية[٢] :

لا النومُ أَدْرِى بهِ ولا الأَرَقُ ... يَدْرِى بِهذين مَنْ به رَمَقُ
إن دموعى من طول ما اسْتَبَقَتْ ... كلَّتَ فما تستطيع تستبق
ولى مليكٌ لم تَبْدُ صورته ... مُذْ كان إلا صَلَّت له الحَدَق
نويتُ تقبيلَ نارِ وَجْنَتِهِ ... وخفت أدْنو منها فأَحترق

والقطعة مع ما يترقرق فيها من جمال يتعمقها التكلف ، على نحو ما يلاحظ فى البيت الثانى وتعب دموعه من استباقها وتقاطرها على خديه ، وتعبيره عن عبادته لمليكه بصلاة الحدق فيه أيضاً غير قليل من التكلف ، وواضح أن الشطر الأول فى البيت الأخير مجلوب اجتلاباً ليهيئ مكاناً للشطر الأخير . وله مقطوعة نظمها فى فتاة مسيحية ، تمضى على هذا النمط[٣] :

لا ومكان الصَّليب فى النَّحْرِ ... منكِ ومجرى الزنّارِ فى الخَصْرِ
والحلقِ المستديرِ من سَبَجٍ ... على الجبين المصوغ من دُرِّ[٤]

---

(١) الديوان ص ٤٧٢ .
(٢) الديوان ص ٤٣٦.
(٣) الديوان ص ٦٣ .
(٤) السبج : قطع الشعر المرسلة على الجبين .

وسُكْر أجفانك التى حلف الـ ـفتورُ ألا تُفيق من سُكْرِ
وأقحوانٍ بفيك مُنْتَظِمٍ على شبيه الغدير من خَمْرِ
ما صبرَ الشوقُ لى فأصبِرَ يا منْ حُسْنُهُ فيه قِلَّةُ الصَّبر

ويكثر الصنوبرى من الحديث عن الخمر ووصف كئوسها وسقاتها ونداماها ومجالسها ، يفرد لذلك القصائد والمقطوعات . وقد يضع نعت الخمر فى مقدمة بعض مدائحه ، مضيفًا إليها نعت بعض ليالى الأنس وما كان فى مجالسها من غناء وقيان وجوار معقربات الأصداغ . وقد يضيف إلى ذلك وصف البستان وما فيه من أزهار ممتدة حول القصور ومجالسها . وكثيراً ما يقرن وصف الربيع إلى الخمر ، فهو ربيع الدنيا وهى ربيع الفرح والسرور فى رأيه . ويقرنها أيضًا دائمًا إلى الأمطار ، ولعله أول من قرنها بالثلج وانتثاره فى الطبيعة ، وعرف له القدماء ذلك فقالوا إنه أول من تغنى بالثلجيات على شاكلة قوله [1] :

ذَهِّبْ كئوسَك يا غُلا مُ فإن ذا يومٌ مُفَضَّضْ
الجَوُّ يُجْلَى فى البَيَـا ضِ وفى حلىِّ الدُّرِّ يُعْرَضْ
أظننتَ ذا ثلجاً وذا وردٌ على الأغصان يُنْفَضْ
وَرْدُ الربيـع ملوَّنٌ والـورد فى كانونَ أبْيَضْ

وهو يفرح بهذا اليوم من أيام كانون شهر الشتاء القارس ، الذى يكسو الأشجار ثيابًا بيضاء ، وكأنها تُجَلَّى فيها ، فهو يوم من أيام عُرْسها ، وهو يعبّ فيه من كئوس الخمر المذهبة الصافية ، فرحًا بمنظر الثلج على الأغصان ، وكأنما قِطَعُهُ فى عينه وردٌ تُنْفَضُ على الأغصان وعلى الأرض ، وورد بيضاء ، تكسو الطبيعة غلائل فضية بهيجة . وكان أكثر ما يفرغ لخمره ولهوه ولذاته فى الرقة ، وكان يختلف مع رفاقه إلى بساتينها ومتنزهاتها على جداول البليخ والهنىّ والمرىّ . وله رائية [2] يصور فيها نزهة فى بساتين تلك الجداول وفى دير زكىّ الذى كان يجاورها ، ذاكراً قُرَاها التى كان يتنقّل بينها من مثل هرقلة والصالحية

(١) الديوان ص ٢٥٥ .
(٢) الديوان ص ٥٤ .

وبِطِّيْاس والرافقة وما كان يمتد فى المروج هناك من أنوار وأزهار ، ويصف عكوفه على الخمر وسُقاتها من الغلمان والجوارى ، كما يصف صيده بالكلاب هناك من الغزلان ، وكذلك صيده بالجوارح من الصقور والبُزَاة للطير من مختلف الألوان ، ويصوّر من معه من الرفاق كما يصور نهر الفرات وسفنه المسرعة . وله وراء ذلك أشعار كثيرة فى دير زَكِىّ ونُزَهه فى بساتينه وخَلْعه مع بعض رفاقه للعذار فيه ولهوهم مع بعض فتياته ، على نحو ما يحدّثنا فى قوله (١) :

لو على الدَّير عجتَ يوماً لألهتْـ ... ـك فنونٌ وأطربتك فنونُ
كم غزالٍ فى كفِّه الوردُ مبذو ... لٌ وفى الخدِّ منه وردٌ مصونُ

ويبدو أنه ارعوى حين تقدمت به السن بعد الخمسين ، وربما كان لموت ابنته ليلى أثر فى ذلك ، فقد صحا من خمره ولهوه على موتها فى سن البراعم الغضة ، ولعل ذلك ما جعله يعلن أنه كفّ عن النبيذ فى حزم وعزم أكيد ، حتى ليقول (٢) :

كنت أُحبّ النبيذ جِدًّا ... فصار حُبِّى النبيذ بُغْضا
فلست أرضاه لى شراباً ... والحمد لله لست أرْضَى

وينظم بعض أشعار فى الزهد ، وله فيه قصيدة (٣) طويلة ، يتحدث فيها عن الموت وعن ذنوبه ومعاصيه وأنه آن له بعد ما اقترف من الأثام أن يرعوى ويكف عن السير فى طريق اللهو ودروبه . ويتصل بهذا الموضوع عنده أن نجده يفرد بعض القصائد لنصائح خلقية وسلوكية فى الحياة ، وهو الباب الذى يسمَّى فى الشعر وأغراضه باسم باب الأدب ، حيث تتوالى النصائح للبصر بالحياة ومسالكها الصعبة ، من مثل قوله فى إحدى قصائده التى خصّها بهذا الباب (٤) :

أضاع الحَزْمَ مَنْ أمْسَى مُطِيعاً ... طوالَ الدهر ذا حَزْمٍ مضاعِ
وأكثِرْ ما استطعت الحلم إنى ... رأيت الحلم من كرم الطباعِ
ولا تَتْبَعْ أخا سَفِه ودَعْـهُ ... وكُنْ للحُرِّ ـ دهرَك ـ ذا اتباعِ

---

(١) الديوان ص ٤٩٥ .
(٢) الديوان ص ٢٥٨ .
(٣) الديوان ص ٣٩٣ .
(٤) الديوان ص ٣٢٣ .

ولم نتحدث حتى الآن عن الموضوع الأساسى فى شعره ، وهو وصف الطبيعة التى عاش لها وعاش بها وعاش فيها معيشة جعلته أستاذ هذا الموضوع فى العربية . وقد مضى معاصروه مِن حوله ومَن خلفهم فى العصور التالية لا فى المشرق وحده ، بل أيضًا فى المغرب والأندلس يسيرون على هديه فيه ، حتى ضُرب المثل بروضياته . وحقًّا كان ابن الرومى مشغوفًا بالطبيعة ووصف الرياض فى الربيع ، ولكنه لم يَعِشْ لهذا الموضوع معيشة الصنوبرى ولا اتخذ له بستانًا يزرع فيه الورود والرياحين والأزهار ويتعهدها تعهد المحب الوامق كما صنع الصنوبرى . فهو بحق شاعر من شعراء الطبيعة ، عاش يتغذى خياله وروحه منها ، واصفًا لحدائقها وبساتينها ورياضها ، حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل وَكْده من حياته ، وقديمًا عاش تلك المعيشة أبو نواس ، ولكن فى الصهباء وكئوسها ودنانها ، مما جعله يُعْلى وصفها على وصف الأطلال والديار العافية ، وبالمثل نجد الصنوبرى يُعْلى وصف الطبيعة على وصف الديار والأطلال ، فى مثل قوله [1] :

وَصْفُ الرياض كفانى أن أقيم على ... وصف الطلول فهل فى ذاك من باسِ

يا واصف الروض مشغولا بذلك عن ... منازلٍ أَوْحَشَتْ من بعد إيناسِ

قُلْ للذى لام فيه هل تَرَى كَلِفاً ... بأَملح الروض إلا أملحَ الناسِ

فهو يُعْلِى وصف طبيعة بلاده على وصف الأطلال ، وكأنه أول تعبير قوى عن شغف شعراء الشام بطبيعة ديارهم الخلابة . ورأيناه فى غزله لا يهيم بالمرأة ، وكأنما استأثرت الطبيعة بكل ما فيه من عاطفة ، وشغلته بجمالها الهاجع فى الكون عن كل شىء ، حتى لكأنما يعيش لها كل لحظة من حياته ، وفى كل لحظة يصبو لها قلبه ويشتد وجده وتتتابع أنفاسه ، ويصور ذلك فى قصيدة الأبيات السالفة قائلا عن رِفاق له فى أحد البساتين :

ما كدتُ أكتمهم وَجْدى بِنرْجِسِهِ ... إلا استدلُّوا على وَجْدى بأَنفاسِى

فهو يجد بالرياض وجداً لا يكاد يشبهه وجد ، وكان يشتد به هذا الوجد فى الربيع ، حين تأخذ الأرض زخرفها ويعبق الجو بروائح الأنوار والأزهار ، وتتغنى

(١) الديوان ص ١٨١ .

الطيور على الأشجار ، وكأنما تتحوّل الرياض فى عينيه إلى أعياد وأعراس ، حتى ليقول[١] :

ما الدهر إلا الربيعُ المستنير إذا ... أتى الربيع أتاك النَّوْرُ والنُّور[٢]
فالأرض ياقوتة والجو لؤلؤةٌ ... والنبت فيروزَجٌ والماءُ بَلُّورُ[٣]
تظلُّ تنثر فيه السُّحْبُ لُؤْلؤَهـا ... فالأرض ضاحكةٌ والطير مسرورُ
حيث التفتَّ فقُمْرِيٌّ وفاختةٌ ... يغنِّيانِ وشِفنِينٌ وزُرْزورُ[٤]
إذا الهزارانِ فيه صَوَّتَا فهما السُّـ ... ـرْنايُ والنَّايُ بل عودٌ وطُنْبورُ[٥]

فالربيع كأنه دكانٌ ملىء بالجواهر ، والدنيا مليئة بالبشر والسرور والطيور تغنى ويشدو عندليبان بصوتهما الساحر ، وكأنما تجتمع جوقة موسيقية تخلب الألباب بأغانيها الجميلة . ويهتف بالناس أن يفتحوا عيونهم وأبصارهم فى الربيع ليروا مفاتنه ويهتف بصواحبه من النساء أن يتأملنَ فى جماله الذى يملأ القلوب غبطة وابتهاجاً ، يقول[٦] :

يا ريمُ قومى الآن ويحك فانظـرى ... ما للرُّبَى قد أظهرت أعجابها[٧]
كانت محاسنُ وجهها محجوبةً ... فالآن قد كشف الربيع حجابها
وردٌ بدا يحكى الخدودَ ونَرْجِسٌ ... يحكى العيون إذا رأتْ أحبابها
وكأنَ خُرَّمَهُ البديعَ وقد بدا ... رؤُس الطَّواوس إذ تدير رقابها[٨]
والسَّرْوُ تحسبه العيونُ غوانياً ... قد شَمَّرتْ عن سوقها أثوابها[٩]

فهو يوقظ صاحبته لترى الطبيعة وقد حسر الربيع نقابها ، فبدت خدودها وعيونها الرانية ورءوسها الزاهية ، وكأنما السرو غانيات أقبلت مشمرة عن سيقانها

---

(١) الديوان ص ٤٢
(٢) النوْر : الزهر .
(٣) الفيروزج : الفيروز وهو حجر كريم أخضر اللون .
(٤) القمرى والفاختة : من الحمام ، والشفنين اليمام ، والزرزور : من العصافير .
(٥) السرنای والنای : من آلات الطرب .
(٦) الديوان ص ٤٥٤ .
(٧) أعجاب : جمع عجب .
(٨) الخرم : زهر بنفسجى زاه .
(٩) السوق : السيقان جمع ساق .

تريد الرقص فى هذا الجو العطر البهيج . ويفرد كثيراً من مقطوعاته لوصف بعض الأزهار ، ولم يكن زهر يملك لُبَّه كما كان يملكه زهر النرجس ، وهو أعظم الأزهار فى الشام وأكثرها انتشاراً فيه ، وقد تغنى به طويلا على نحو ما نرى فى قوله[1] :

أرأَيتَ أَحسنَ من عيون النَّرْجِسِ ... أَم من تلاحظهن وَسْطَ المجلِسِ

دُرٌّ تشقَّق عن يواقيتٍ على ... قُضُبِ الزمرُّدِ فوق بُسْطِ السُّنْدِسِ

أَجفانُ كافورٍ حُبِينَ بأَعْيُنٍ ... من زعفرانٍ ناعمات الملمسِ

وهو فى كثير من وصفه للنرجس يستهدى بابن الرومى ، إذ كان معجبًا به مثله ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن ابن الرومى أدار مناظرةً فى شعره بينه وبين الورد ، وقف فيها مع النرجس مُورداً من الحجج ما يؤكدُ فضله على الورد وأنه يفوقه حسنًا وجمالا ، وكأنما أراد الصنوبرى أن يعارضه فنظم مقطوعة[2] نصر فيها الورد ، ثم عاد فأقام معركة بين الأزهار ، حاول فيها أن ينتصر للنرجس ، وفيها يقول[3] :

خَجِلَ الورد حين لاحظه النرْ ... جِسُ من حُسْنِهِ وغارَ البَهارُ[4]

فعَلَتْ ذاك حمرةٌ وعَلَتْ ذا ... حَيْرَةٌ واعترى البَهارَ اصفرارُ

وغدا الأُقْحُوَانُ يضحك عجباً ... عن ثنايا لِثَاتُهُنَّ نُضَارُ[5]

عندها أَبرز الشَّقيق خدودًا ... صار فيها من لَطْمه آثارُ[6]

وأَضرَّ السَّقامُ بالياسمين الـ ... غَضِّ حتى أَذابه الإِضرارُ

ويمضى الصنوبرى على هذا النمط واصفًا القتال بين النرجس والأزهار المختلفة ، وكل منها يبوءُ بالهزيمة أمام النرجس وما يسلط من سهام عيونه الساحرة . وكان كلما وصف بلدة من بلدان الشام وصف طبيعتها الجميلة ، وله فى دمشق والرقة قصائد بديعة ، وأبدع منها قصيدته فى موطنه حلب ، وهى أربعة أبيات ومئة استهلَّها

---

(١) الديوان ص ١٨٠ .

(٢) الديوان ص ٤٩٨ .

(٣) الديوان ص ٧٨ .

(٤) البهار : نبت أصفر .

(٥) الأقحوان : زهر أبيض فى وسطه اصفرار وأوراقه مفلجة ، ولذلك يشبهونه بالأسنان .

(٦) الشقيق : ورد كبير أحمر .

بالتشبيب ، ثم أخذ فى وصف متنزهاتها وقراها ونهرها قويق وبركها ، ثم وصف المدينة نفسها وجامعها وفيه يقول[١] :

حبذَا جامعُها الجا معُ للنفس تُقاها
ومــراقى مِنْبَــرٍ أعْ ـلمُ شيءٍ مُرْتقاها
وذُرَى مِئْــذنةٍ طــا لتْ ذُرَى النَّجم ذُراها
قُبــةٌ أبْدَع بانيـ ـها بنــاءً إذ بناهــا
لو رآهــا مبتنى قُبَّـ ـةِ كسرى مابناهــا

وتحدث عن حلقاتها الأدبية والعلمية ، ووصَفَ الطبيعة حولها وأشجارها وأزهارها وصفًا رائعًا ، وتحدث مراراً عن نهر قويق مصرحًا بضحولة مياهه وأنه ليس فيه شيء من سفن الفرات ولا من تماسيح النيل وإنما فيه فقط نقيق الضفادع . وكان طبيعيًّا أن يصف الفستق أعظم نُقْل تشتهر به حلب وفيه يقول[٢] :

زبرجدةٌ ملفوفة فى حريرةٍ مضمَّنةٌ دُرًّا مُغَشَّى بياقوتِ

وكانت لديه قدرة على ملاحظة دقائق الأشياء، ولذلك كان يُحْسِن وصف أى شيء وصفاً دقيقاً ، ومما اشتهر به وعُرِف له وصفه لديك الصباح الذى ينبهه وينبه الرّفاق معه لخمر الصباح التى تسمى بالصَّبوح ، وكان الشعراء قبله يلمّون به أحيانًا ، أما هو فخصَّه بمقطوعة طريفة وفيها يقول[٣] :

مغرِّدُ الليل ما يألُوكَ تَغْريدا ملَّ الكرَى فهْو يدعو الصُّبْحَ مجهودا[٤]
لما تطرَّب هزَّ العِطْفَ من طربٍ ومدَّ للصوت ـ لما مدَّه ـ الجيدا
كلابسٍ مُطْرَفاً مُرْخٍ جوانبه تضاحك البيض من أطرافِه السودا[٥]
رانٍ بِفَصَّىْ عقيقٍ يدركان له من حِدَّةٍ فيهما ما ليس محدودا
حالى المقلَّد لو قيستْ قلادتُه بالورد قصَّر عنها الورد توريدا

---

(١) الديوان ص ٥٠٦ .
(٢) الديوان ص ٤٦٤ .
(٣) الديوان ص ٤٧٣ .
(٤) الكرى : النوم .
(٥) المطرف : ثوب من حرير مخطط .

obeikandi.com

وكان كثيراً ما يخرج مع رفاقه للصيد والقَنص ، وخاصة فى الرقة ، يصيدون بالكلاب الغزلان أو يصيدون بالجوارح طير الماء ، وقد يصيدون السمك من الفرات بالشباك ،وكل ذلك نجد وصفه فى أشعاره ، وله طائية[١] يصف فيها جواده الذى يركبه للصيد وقد جُنَّ جنونه من السرعة حتى لكأنه حاقد على الفضاء ، أما يده فكأنها منبر للشاهين الذى سيطلقه على بَطّ الماء أو طَيْره ، وفيه يقول :

كأنما مِخْلَبُهُ لأُذُن الطَّيْر قُرُطْ

ويصور سرعة مضيه حتى كأنه سَهم يخرج عن قوس ، فلا يكاد يرتد البصر حتى يأتى بصيده . ويتركه إلى وصف ما معه من كلاب الصيد ، مصوراً سرعتها هى الأخرى وهيئتها وانقضاضها على فرائس الصيد من الغزلان وغير الغزلان ، وفيها يقول :

موكَّلات بالفَلا يَطْوِينها طَىَّ البُسُطْ
كأنما آذانُهُ نَّ مُوسَّن لم يُجْنَ قَطْ
كأنما أجفانُها عن قِطَع الجمر تُعَطّ[٢]

وساعدته حاستة التصويرية على أن يصور كل ما حوله وكل ما يقع عليه نظره ، من ذلك تصويره للجُرْذان والهِرّ[٣] ، ونراه يقدم لذلك بتصوير هيئة كل منهما ، فالهر أحدب الظهر منتصب الرأس ، والجرذان دقيقة الخراطيم والآذان والأذناب حادة الأظفار والأنياب ، ثم يتحدث عن إفسادها لكل شىء وكيف تنقب الحيطان والجدران وتصيب من كل طعام وشراب ، والهِرُّ لها بالمرصاد ، يقول :

ناصبٌ طَرْفَهُ إزاء الزَّوايا وإزاء السقوف والأَبوابِ
يسحب الصَّيْدَ فى أقل من اللَّمْـ ـحِ ولو كان صَيْدُه فى السحاب

ويصور لنا فرحه به حتى لقد ألبسه قُرْطًا وقلادة ، وخضبه بالحنّاء ، وكأنه عروس مقلدة عقداً نفيسًا ، تمشى بأقدامها الحمراء على عُنَّاب ، وكل ذلك

---

(١) الديوان ص ٢٨٣ .
(٢) تعط : تشق .
(٣) الديوان ص ٤٥١ .

obeikandl.com

فرحٌ بهذا الليث الذى قضى له على الجرذان قضاءً مبرمًا . ومن تصاويره قوله فى شمعة[1] :

مَجْدُولَة فى قَدِّهـا تَحْكى لنا قَدَّ الأَسَلْ
كأَنهـا عُمْرُ الفَتَى والنـارُ فيها كالأَجَلْ

وهى صورة طريفة ، ولعل فى كل ما أسلفنا ما يشهد بخصب خيال الصنوبرى وأنه كان خيالا خالقًا ، لا يزال يرسل الصور الطريفة تلو الصور ، صور تحفل بما يملأ نفس قارئه إعجابًا ، وكان إلى ذلك شغوفًا بالرياض والطبيعة شغفًا ملك عليه حواسَّه ، حتى أصبح فيه قدوة للعصور التالية .

---

(١) الديوان ص ٤٨٥ .